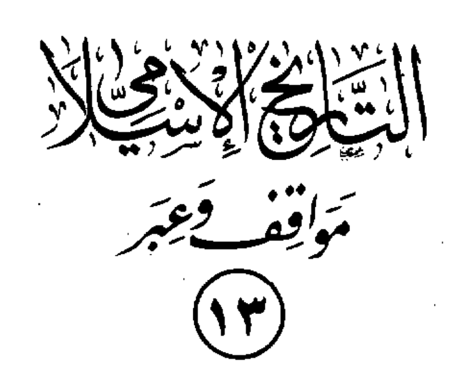


الأمويون والعباسيون والعثمانيون والدويلات المستقلة

الجزء الأول

دكتور
عبد العزيز بن عبد الله الحميدي
الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين
بجامعة أم القرى

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد: فقد سبق نشر الكتاب الأول من سلسلة « **التاريخ الإسلامي / مواقف وعبر** » وموضوعه « **السيرة النبوية** » والكتاب الثاني وموضوعه « **الخلفاء الراشدون** » وهذا هو الكتاب الثالث وهو يشتمل على المواقف والعبر من تاريخ الأمويين والعباسيين والعثمانيين والدويلات المستقلة المعاصرة لهم .

وليس المقصود بهذا التاريخ رصد كل مادونه المؤرخون من تاريخ هذه الدول ، وإنما المقصود ذكر مايوافق عنوان هذا الكتاب وهو المواقف والعبر .

وقد سرت في ترتيب هذا الكتاب على التنظيم الجِهَوِي ، وذلك بذكر أحداث كل جهة في عنوان واحد مرتبة على الترتيب الزمني ، ماعدا المواقف من سيرة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى فإن موضوعاتها تختلف عن بقية موضوعات هذا الكتاب .

وقد بدأت بذكر جهاد المسلمين مع الروم وذلك في عهد الأمويين والعباسيين ومن أُلحِق بهم والعثمانيين ، ثم ذكرت جهاد المسلمين في بلاد السند والهند في عهد الأمويين والعباسيين وفي عهد الدويلات الإسلامية في الهند ، ثم ذكرت جهاد المسلمين في المغرب وفي الأندلس ، وكذلك الفتوح في المشرق في العهود المذكورة أو بعضها .

أما مواقف عمر بن عبد العزيز فقد استوعَبتْ جزءًا كاملا وهو الجزء الخامس عشر .

ويشتمل هذا الكتاب على موضوعات جهادية وإدارية وأخلاقية وتربوية .

مصادر الكتاب :

لقد اعتمدت في الكتابة عن هذه العهود على عدد من الكتب من أبرزها « تاريخ الرسل والملوك » للطبري ، و« البداية والنهاية » لابن كثير و « الكامل في التاريخ » لابن الأثير و« سيرة عمر بن عبدالعزيز» لابن عبد الحكم .

وقد سبقت ترجمة موجزة للطبري وابن كثير في الكتاب السابق «الخلفاء الراشدون » ،وسأذكر ترجمة موجزة لابن عبد الحكم وابن الأثير.

عبد الله بن عبد الحكم :

هو عبد الله بن عبد الحكم بن أعْيَن بن ليث المصري، الإمام الفقيه مفتي الديار المصرية ، وهو صاحب الإمام مالك بن أنس، ولد سنة خمس وخمسين ومائة .

وثقه أبو زرعة ، وقال ابن واره : كان شيخ أهل مصر، وقال أحمد العجلى : لم أر بمصر أعقل منه ومن سعيد بن أبي مريم .

توفي رحمه الله تعالى في شهر رمضان سنة أربع عشرة ومائتين،

وذُكر له من المؤلفات كتاب « الأموال » وكتاب « سيرة عمر بن عبدالعزيز » [1] .

وقد اعتمدت في كثير مما نقلته من سيرة عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى على هذا الكتاب .

ابن الأثير :

هو المؤرخ العلامة عز الدين أبو الحسن علي بن الأثير أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري الشيباني .

من أشهر مؤلفاته « الكامل في التاريخ » و « أُسْد الغابة في معرفة الصحابة » .

قال عنه الحافظ الذهبي :كان إمامًا علامة أخباريًا أديبًا متفننًا رئيسًا محتشما .

وقال عنه ابن خلكان : كان بيته بالموصل مجمع الفضلاء ، اجتمعت به بحلب فوجدته مكمَّلا في الفضائل والتواضع وكرم الأخلاق.

توفي في شهر شعبان من سنة ثلاثين وستمائة رحمه الله تعالى[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٢٠ - ٢٢٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٢/٣٥٣ - ٣٥٦ ، البداية والنهاية ١٣/١٤٩ - ١٥٠ .

مواقف وعبر

فى

جهاد المسلمين مع الروم

الجهاد مع الروم

فى

عهـــد الأمـويين

تقدم الكلام على مواقف فتوح الشام في عـهد أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه وبقي الإشارة بإيجاز إلى المواجهات القتالية المستمرة بين دولة الإسلام في الشـام ودولة الروم منذ عهد عمر رضي الله عنه ، فإن الحرب لم تهدأ لبقاء دولة الروم في كثير من ممالكها.

وبعـد استـقرار حكم المسلـمين في الشام في أواخـر عهـد أميـر المؤمنين عمر رضي الله عنه فإن الروم أيسوا من عودة الشام إليهم فلم يفكروا في غزوه إلا في فترات اخـتلاف المسلمين وحدوث الفتن بينهم كما هو الحال في عهـد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، حيث عزم ملك الروم على غزو الشـام فهدده معـاوية رضي الله عنه بالعزم على الصلح مع علي رضي الله عنه ثم التوجه نحوه لتأديبه .

وكذلك في عـهد عبـد الملك بن مروان حـينما كان في قـتال مع مصعب بن الزبير .

أما فيما عدا ذلك فـإن المسلمين كانوا ينظِّمون الغزوات ضد الروم في أكثر السنوات صـيفًا ويسمونها الصوائف ، وكـان القصد من هذه الصوائف إضـعاف دولة الروم وحمـاية دولة الإسلام، وكانوا أحـيانا يطيلون الغـزو ويتـوغلون في بلاد الروم ويشتُّـون بهـا ، وقد بلغـوا القسطنطينية عدة مرات .

جهاد الروم في عهد معاوية

الغزوات الأولى :

غزا المسلمون بلاد الروم في عهد معاوية رضي الله عنه عدة غزوات قبل الغزوة الكبرى التي كانت بقيادة يزيد بن معاوية .

وقد ذكر المؤرخون هذه الغزوات باختصار، فمن ذلك أنهم ذكروا أن المسلمين غزوا بلاد الروم سنة اثنتين وأربعين، فهزموهم هزيمة منكرة وقتلوا جماعة من بطارقتهم .

ثم غزوهم في سنة ثلاث وأربعين بقيادة بسر بن أرطأة .

ثم غزوهم في سنة ست وأربعين بقيادة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وأقاموا فيها فصل الشتاء .

ثم غزوهم في سنة ثمان وأربعين بقيادة أبي عبد الرحمن القيني وأقاموا في الشتاء في أنطاكية (١).

غزوة القسطنطينية :

وبعد أن قام أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه بإرسال عدد من الجيوش في عدة سنوات رأى أن الفرصة مناسبة لبعث جيش كبير لغزو القسطنطينية بعد أن أضعف دولة الروم وبث الرعب في قادتها وجنودها، فبعث جيشًا كبيرًا بقيادة ابنه يزيد في سنة تسع وأربعين ، وفيه عدد من الصحابة منهم أبو أيوب الأنصاري وعبد الله بن عمرو ابن العاص وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم،

---

(١) تاريخ الطبري ٥/ ١٧٢-٢٣٢ ، البداية والنهاية ٨/ ٢٥-٣٤ ، تاريخ ابن خلدون/ ٩ .

وقد قـال رسول الله ﷺ « أول جيش من أمتـي يغزون مدينة قيـصر مغفور لهـم » أخـرجه الإمام البخاري (١) وكان ذلك الجـيش أول من غزا القسطنطينية .

ومما جرى في هذه الغزوة مـاأخرجه الإمامـان أبو داود والترمذي من حـديث أسلم أبي عمـران التجيـبي قال: غـزونا من المدينة نريد القسطنطـينية ، وعلى الجمـاعة عبـد الرحمن بن خـالد بن الوليد (٢) والروم ملصقوا ظهورهم بحائط المدينة ، فحمل رجل على العدو فقال الناس : مه ، مـه ، لا إله إلا الله ، يلقى بيديه إلى التهلكه، فـقال أبو أيوب : إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لما نصر الله تعالى نبيه ﷺ وأظهر الإسلام قلنا : هلمَّ نقيم في أموالنا ونصلحها ، فأنزل الله تعالى ﴿ **وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّـهْلُكَةِ** ﴾ [البقرة: ١٩٥] فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة أن نقـيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد .

قال أبو عـمران : فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبـيل الله حتى دفن بالقسطنطينية (٣).

فهـذا الحديث يبين لنا خطورة الاشتـغال بالأموال عن الجـهاد في

---

(١) صحيح البخاري ، رقم ٢٩٢٤ ، الجهاد (٦/ ١٠٢) .

(٢) يعني بذلك الجمـاعة الذين غزوا من المدينة ، وفي رواية الـترمذي : وعلى الجمـاعة فضالة بن عبيد .

(٣) سنن أبي داود ، رقم ٢٥١٢ ، الجـهـاد (٣/ ٢٧) ، سنن التـرمـذي ، رقم ٢٩٧٢، التفسير ٥/ ٢١٢ .

سـبيل الله تعـالى ، وأن الهـلاك الحقـيـقي هو هلاك الآخرة بسـبب التهاون في واجبات الإسلام .

ولقد قاتل المسلمون أعداءهم حول أسوار القسطنطينية، واستشهد أبو أيوب الأنصاري رضـي الله عنه هناك ، وقد أوصى قـبل موته أن يقربوه ما استطاعوا من أرض الروم فدفنوه قريبا من السور (١).

ولم يتمكن المسلمون من فتح القسطنطينية هذه المرة لقوة أسوارها ومتانتهـا واستعداد الروم لتحمل الحصـار لمدة طويلة ، فعاد المسلمون إلى بلادهم، ولكنهم كسبوا من وراء ذلك إظهار قوة دولة الإسلام وأن باستطاعتها أن تغـزوهم في عقر دارهم ، وهذا يجعل الروم يرتدعون عن محاولة غزو بلاد الإسلام في حال ضعف الدولة الإسلامية .

* * *

(١) انظر تاريخ الطبري ٥/ ٢٣٢ ، البداية والنهاية ٨/٣٤-٦١ .

جهاد الروم في عهد عبد الملك وابنه الوليد

الاستعداد لغزو الروم في عهد عبد الملك :

إن أهم المعارك الحاسمة بين المسلمين والروم في هذا العهد ماذكره المؤرخ ابن أعثم الكوفي قال: وتحركت الروم بأرض القسطنطينية وغيرها من بلاد الروم فاجتمعوا في خلق عظيم وعزموا على مفاجأة المسلمين في دارهم وأخذ الشام من أيديهم ، وبلغ ذلك عبد الملك بن مروان فنادى في أهل الشام فجمعهم في المسجد الأعظم ، ثم صعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال: أيها الناس إن العدو قد كلَب عليكم وطمع فيكم وَهُنتم عليه لترككم العمل بطاعة الله تعالى واستخفافكم بحق الله ، وتثاقلكم عن الجهاد في سبيل الله ، ألا وإني قد عزمت على بعثكم إلى أرض الروم فماذا عندكم من الرأي ؟

قال : فأجابه الناس بأحسن الجواب ورغبوا فيما رغبهم فيه من الجهاد وعزموا على ذلك .

قال : فعندها أمر عبد الملك بن مروان فكُتب له أربعة كتب، كتاب منها إلى أبان بن عثمان – وهو عامله على الحجاز – أن يوجه إليه برؤساء أهل الحجاز وفرسانهم ، وكتاب إلى علقمة بن مرداس الخولاني – وهو عامله على اليمن – أن يوجه إليه بفرسان أهل اليمن، وكتاب إلى أخيه عبد العزيز بن مروان – وهو عامله على بلاد مصر – أن يشخص إليه بنفسه في أجناد مصر ، وكتاب إلى الحجاج ابن يوسف أن يوجه إليه بأجناد أهل العراق .

ثم كتب أيضًا إلى أخيه محمد بن مروان وإلى ابنه مسلمة وهما

يومئذ في بلاد أرمينية وأذربيجان فأشخصهما إليه في جميع من معهما من أجنادهما (١) .

هذا وإن كثرة هذه الجيوش التي حشدها عبد الملك بن مروان من أنحاء بلاد الإسلام دليل على ضخامة الجيش الرومي الذي عمل الروم على تجهيزه لغزو بلاد المسلمين .

وإن ماجاء في خطبة عبد الملك هذه من التذكير بطاعة الله تعالى واجتناب معصيته والاهتمام بالجهاد في سبيله ، وأن ذلك حصن الأمة الحصين وسبب رهبة الأعداء منهم ، وأن الإخلال بذلك سبب هوان أمة المسلمين على أعدائهم . . إن اهتمام عبد الملك بذلك يدلنا على الوجه الآخر لخلفاء المسلمين في عصورهم الذهبية الذي عَتَّم عليه بعض المؤرخين ولم يبرزوه بالدرجة الكافية بينما أبرزوا خلافات الولاة وحروبهم الداخلية وأنماط حياتهم التي تميل أحيانًا إلى مظاهر الدنيا بقدر كبير من البسط والتفصيل .

إن هذه الخطبة وأمثالها تعتبر امتداداً لما اشتهر به عبد الملك من التفوق في العلم الشرعي حيث كان من أكابر طلاب العلم الذين تعمقوا في العلم على علماء المدينة النبوية ، كما تعتبر امتداداً لما

---

(١) الفتوح لابن أعثم ١٢٢/٧ ، وهذا الكتاب للمؤرخ أبي محمد أحمد بن أعثم الكوفي، وقد قال عنه ياقوت الحموي : « الإخباري المؤرخ وهو عند أصحاب الحديث ضعيف» - مقدمة الفتوح لابن أعثم /ب - وقد ذكرت في هذا الجزء جملة من أخبار الجهاد الإسلامي في بلاد الروم ، ولايؤثر في هذا القدر المنقول عنه كونه ضعيفا عند أهل الحديث لأن هذا المنقول لايترتب عليه أي حكم شرعي وإنما هو بيان لمواقف بعض التابعين الجهادية .

اشتهر به في شبابه من العبادة حيث كان وإخوة له يرابطون في المسجد النبوي بين الصلوات للصلاة والذكر والتلاوة .

إننا لاننكر أن من المؤرخين من يذكر ما للولاة من بعض المحاسن وماعليهم من المآخذ ، ولكن الاهتمام في ذلك كان في ذكر جوانب الاصلاح التي تتعلق برفاهية الأمة وتقوية أمنها ورخائها .

والذي ينبغي لفت النظر إليه إلى جانب ذلك الإشارة إلى مدى فهم أولئك الولاة للإسلام وتطبيقهم لأحكامه وآدابه، ومدى صلتهم بالله تعالى وتذكرهم لعوامل النصر وعوامل الانهزام ، وعوامل التمكين في الأرض وعوامل الانهيار الحقيقية التي تقوم على تطبيق الإسلام في الأرض أو الإخلال بشيء من ذلك .

ومما ينبغي الإشارة إليه أخيراً الإشادة بدقة الرصد الحربي لدى المسلمين في عصورهم الأولى ، حيث علم عبد الملك عن عزم ملك الروم على غزو بلاد المسلمين بجيش كبير فأعد للأمر عدته واستعد لدفع البلاء قبل حلوله بما يتناسب مع حجمه وفي الوقت المناسب للقضاء عليه .

قال ابن أعثم في روايته المذكورة :

فلما اجتمع الناس من جميع الأمصار قام فيهم خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنكم قد علمتم ماذكر الله عز وجل في كتابه من فضل الجهاد وما وعد الله عليه من الثواب ، ألا وإني قد عزمت أن أغزو بكم غزوة شريفة إلى « أليون » صاحب الروم فإنه قد طغى وبغى وقد بلغني أنه قد جمع للمسلمين جموعًا كثيرة وعزم على

غزوكم ومفاجأتكم في دياركم وقد علمت أن الله تعالى مهلكه ومُبَدِّدٌ شمله وجاعل دائرة السوء عليه وعلى أصحابه ، وقد جُمِعتم من كل بلد ، وأنتم أهل البأس والنجدة والشجاعة والشدة ، وأنتم من قام لله بحقه ولدينه بنصرته وهذا ابني مسلمة وقد أمَّرته عليكم فاستمعوا له وأطيعوا يوفقكم الله ويرشدكم لصالح الأمور ، قال فقال الناس: سمعًا وطاعة ياأمير المؤمنين ، قال : فأمرهم عبد الملك بن مروان فعسكروا خارجًا عن مدينة دمشق في خلق عظيم .

قال : وخرج إليهم عبد الملك بن مروان فعبأهم هنالك فجعل على كل قبيلة من القبائل من ساداتهم يقتدون برأيه ، وينتهون إلى أمره، ثم قال لابنه : يابني إني قد نَدَبْتك لهذا الأمر وشرفتك بهذا الجيش فجعلته لك شرفًا وذكرا إلى آخر الأبد ، فكن يابني للمسلمين بارًّا رحيما وأميرًا حليما ، ولاتكن عنيدًا كفورًا ولامختالاً فخورا ، واعلم يابني أن الروم سيلقونك بجيش كثير وجمع كبير ، فثق بالله واستعن به وتوكل عليه ، فكفى به وليا وناصرا ، وانظر يابني لايَهُولَنَّك ماترى من جمع الروم وكثرة عددهم فإن الله تبارك وتعالى بفضله ومنِّه مهلكهم وضارب وجوههم ومرعب قلوبهم ومزلزل أقدامهم ، ومعك يابني بحمد الله خلق كثير ، فإن عزمت على حرب عدوك فاجعل عمك محمد بن مروان على ميمنتك ، واجعل ابن عمك محمد بن عبد العزيز على ميسرتك ، واجعل محمد بن الأحنف بن قيس على طلائعك، وعبد الرحمن بن صعصعة بن صوحان على جناحك واعتمد في حربك على البَطَّال بن عمرو فإنه

بطل شجاع مقدام [شياع] (١) وانظر يابني لاتكسل ولاتفشل ولاتجزع ولاتهلع ، فإنك إن لم تفعل ذلك وتعديت ماأوصيتك به استوجبت من الله المقت ، ومن عباده البغض، ومن ملائكته اللعن فإن الله تعالى يقول ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٦] .

قال : ثم أقبل عبد الملك بن مروان إلى الناس فقال: أيها الناس المسلمون أنتم إخواني وأعواني، وهذا ابني مسلمة وهو سيفي ورمحي وسهمي ، وقد رميت به في نحر العدو ، وبذلت دمه ومهجته لله عز وجل ، ورجوت أن يقضي الله به على جيش الروم فأعينوه واعضدوه وقوموا معه ، وانصروه إذا كسل ، وشجعوه إذا فشل، وأيقظوه إذا غفا ، وفهموه إذا هفا ، فإن أصيب فالأمير بعده عمه محمد بن مروان ، فإن أصيب فابن عمه محمد بن عبد العزيز فإن أصيب فاختاروا من أحببتم الأفضل فالأفضل ، والخيار في ذلك إليكم، والسلام .

ثم دعا مسلمة فعانقه وقبَّل بين عينيه وقال : السلام عليكم ياولدي وقرة عيني وثمرة فؤادي ، فإن نفسي تحدثني أني لا أراك ولاتراني بعد هذا أبدا ، ثم بكى ، وبكى الناس لبكائه ، وودع الناس بعضهم بعضا ، ورحلوا من عسكرهم يوم الجمعة ، وذلك في أول

(١) هكذا وردت في الرواية ولم أجد لها معنى يناسب السياق إلا أن تكون « مُشَيَّع» بمعنى شجاع ولكن هذا الوصف ذكر قبل ذلك ، والبطال اسمه عبد الله بن عمرو الأنطاكي.

يوم من رجب بعد صلاة الجمعة [1] ، وعبد الملك بن مروان يشيِّعهم إلى أن نزلوا على فرسخين من مدينة دمشق ، فأقاموا يومهم ذلك هناك ، فلما كان من الغد ودعهم عبد الملك بن مروان ورجع إلى دمشق في نفر من أصحابه .

قال : وسار القوم في الآلة والسلاح الكامل والزيِّ الحسن والخيل العتاق والبراذين المُطهَّمة حتى نزلوا بموضع يقال له «مرج دابق» [2] .

قال : فلم يزل مسلمة هنالك نازلا والناس يخرجون إليه ويتلاحقون به من كل موضع راغبين في الجهاد حتى صار في عسكر عظيم ، ووافاه الفتية المدنيون التائبون [3] ، وسيأتي خبرهم بإذن الله تعالى .

هذا وإن في خطبة عبد الملك هذه ووصيته لولده ولجنده مثلا لما قدمت ذكره عنه من قوة ارتباطه بالله تعالى وإدراكه العميق لعوامل النصر المعنوية ، ولاغرابة عليه في ذلك فهو من التابعين الذين نهلوا من علم الصحابة رضي الله عنهم وتلقوا التربية على أيديهم ، ففي خطابه لجيش المسلمين يبين ماجمعه الروم لهم من الجموع الكثيرة ثم يحكم على نتيجة المعركة معهم بحسن الظن بالله تعالى وقوة الأمل في نصره لأوليائه وإهلاك أعدائه ، وهذه بداية طيبة لتلك المعارك التي

(١) يعني من سنة ست وثمانين كما سيأتي في سياق مواقف المعركة، وانظر الكامل ٤/١٠٦ .

(٢) هي قرية قرب حلب بينها وبينها أربعة فراسخ - معجم البلدان ٤/٣ .

(٣) الفتوح لابن أعثم ٧/١٢٣ - ١٢٥ .

سيخوضها معهم المسلمون ، حيث لم يَعْتَدَّ عبد الملك بقوة جنده وحسن استعدادهم المادي ، بل جعل الأمر كله بيد الله تعالى .

وفي وصيته لابنه مسلمة نجده يوصيه بحسن السياسة مع جنده حيث يذكِّره بالالتزام بمكارم الأخلاق التي تجعله محبوبا لدى جنده فأوصاه بالبر الذي يصله بجنده ، وبالرحمة التي تحجزه عن الظلم ، وبالحلم الذي يملك به غضبه فلايتصرف إلا بعقله السليم ، ونهاه عن مساوئ الأخلاق التي تجعله مُبغَضًا لدى جنده ، حيث نهاه عن العناد الذي يدفعه إليه الاعتداد بالرأي وعدم قبول مشورة أهل الخبرة ، ونهاه عن كفر النعمة الذي يتمثل بعدم تقدير أهل الفضل ، والإمساك عن شكرهم ، وذلك يحجب عنه طاقاتهم الفعالة وقدراتهم المؤثرة فيضعُف إنتاجهم ويكون الفشل سبيلَه وسبيلهم ، ونهاه عن الخيلاء والفخر ، لأن هذا الخلق السيء يطمس من فكر الإنسان محاولة إدراك عيوبه والطموح نحو الكمال ، حيث يكون الفكر مشغولا بتلمس مايرضي غرور النفس وإن كان سرابا لاوجود له في الواقع ، إلى جانب كونه يحجب عن القائد نِتاج فكر المفكرين من أتباعه ، ويحدد علاقتهم به بنوع من المجاملة ، والاكتفاء بأداء الواجبات الضرورية الظاهرة بشيء قليل من الكفاءة والطاقة .

إلى آخر هذه الوصايا التي من أبرزها نهيه ابنه القائد عن الكسل والفشل والجزع والهلع ، وتذكيره بأنه إن وقع في شيء من ذلك فقد استوجب المقت من الله تعالى ، والبغض من عباده واللعن من ملائكته ، وهو تأكيد مرة أخرى على لزوم الصلة بالله تعالى وتذكُّر

عظمته ورقابته ، وأن المعوَّل عليه في جميع الأمور هو طلب رضوانه واجتناب سخطه ، وعلى ذلك يترتب طلب رضوان الملائكة والمتقين من عباد الله جل وعلا .

ومن أبرز تلك الوصايا تذكير الجند بنصر القائد إذا كسل وتشجيعه إذا فشل ، وإيقاظه إذا غفا ، وتفهيمه إذا هفا ، فالقائد لاكيان له ولاقوة إلا برقابة جنده ونصحهم إياه ، وبذلهم كل طاقتهم معه في خدمة الهدف الأعلى الذي يجاهدون من أجله .

هذا وقد حصل ماتوقعه عبد الملك من عدم لقائه بابنه مسلمة بعدَ ذلك اليوم حيث توفي عبد الملك بعد ذلك بشهرين ونصف في منتصف شوال من عام ستة وثمانين (١) .

* * *

(١) الكامل ٤/١٠٢ .

خبر الفتية التائبين :

ذكر المؤرخ أحمد بن أعثم الكوفي - في سياق أخبار غزو المسلمين لبلاد الروم - خبر الفتية العشرة الذين كانوا في المدينة على شيء من المعاصي واللهو ثم تابوا إلى الله تعالى توبة نصوحا وخرجوا مجاهدين في سبيل الله تعالى ، وقد ذكر أسماءهم وماهم فيه من اللهو المحرم والمعاصي من روايته عن عيسى بن دأب إلى أن قال : وكان هؤلاء الفتية العشرة في كل نعمة سابغة لايأتي عليهم يوم من الأيام إلا وهم أشد سروراً وأطول حبورا من يومهم الذي مضى إلى أن وقع الخبر إليهم بأن عبد الملك بن مروان قد وجه جيشًا إلى بلاد الروم .

قال : وأراد الله عز وجل ماأراد من الخير ، وأحب الله عز وجل أن ينقذهم مما هم فيه من ظلمة المعاصي إلى نور الطاعة .

قال : فأول من ارتدع منهم عما هو فيه ودعته نفسه إلى التوبة والإنابة إلى الله تعالى يحيى بن عمرو القرشي ، فعزم على ذلك وجعل يُسِره في نفسه ولايذكر لإخوانه شيئًا مما قد عزم عليه، وهو مع ذلك يجالسهم ويحادثهم .

قال : فبينما هم ذات يوم على شرابهم ولهوهم إذ أخذوا شيئًا من تناشد الأشعار التي قد أحدثوها بينهم فجعل كل واحد منهم يقول شيئًا ، ويحيى بن عمرو القرشي ساكت لاينطق بشيء حتى فرغوا من نشيدهم ، فأحب أن يلقي إليهم شيئًا مما قد عزم عليه من أمر التوبة ونزوع عما هو عليه فأنشأ يقول :

قالت سلوتَ فقلت لست بجاهد أنا والمهيمنِ ذي الجلال الواحد
وسلختَ ودَّك عن فؤاديَ مثلما سُلخَ النهارُ من الظلام الراكد
قالت فَعُدْ فالعود عندي أحمدُ فأجبتها هيهات لست بعائد
إني أخاف عذاب رب سرمدٍ تبدو فضائحه ولست ببائد

قال : فلما سمع القوم من يحيى بن عمرو القرشي هذه الأبيات أنكروا ذلك منه إنكارًا شديدًا بليغا ، ثم إنهم عَضُّوه بألسنتهم وعذلوه فأكثروا فيه من عذله ولومه ، ثم قالوا : ياهذا قد سمعنا منك شيئًا نخاف أن يكون فيه تفريق جماعتنا وتشتيت أُلفتنا ، وإننا نناشدك في ذلك .

قال : فتبسم يحيى بن عمرو القرشي ثم حرك رأسه وأنشد :

إن في اللهو ماعلمت سرورا لايُرى في حوادث الأقدار
غير أني تركت ذلك خوفا وحِذارًا من شرِّ عارٍ ونار
فأنيبوا إلى الإله وتوبوا كم إلى كم نقيم في الإصرار

قال : فلما سمع القوم ذلك أقبل عليه سليمان بن عمرو - يعني أخاه- فقال : والله ياأخي ماعدا جميعُ تكلمت به سويداء قلبي ولقد أخذ بمجامع قلبي وعقلي حتى لقد غلب على سمعي وصدري وحال بيني وبين لذتي ، ولقد علمت أن الأمر كما ذكرت وأن الرغبة فيما رغبتَ ، قال : ثم أنشأ سليمان بن عمرو يقول :

يامن يلوم موفَّقا يدعو إلى إسعاده
أبدى النصيحة إذ دعا لم يأل في إجهاده

لاتنكروا ماقاله　　مِنْ بَذلِه لرشاده
فلقد أتى بنصيحة　　موصولة بسداده

قال : فلما سمع القوم كلام سليمان بن عمرو وميله إلى أخيه جعل بعضهم يقول لبعض : هذا ماكنا نحذره من تفريق الألفة وتكدير العيش ، فعند الله نحتسب مافُجعنا به منكما !

وهكذا استجاب لنداء الجهاد أحد هؤلاء الفتية العشرة وهو يحيى ابن عمرو القرشي ، ودبَّ الإيمان في كيانه ، وسَرتْ في جسمه الحياة كما يسري الماء في العود اليابس ، وتحوَّل في لحظات إلى مؤمن تقي يتذكر ببالغ الأسى والحسرة ماضيه المظلم فيزيده ذلك إيمانًا وعزما على المضي في طريق الهداية .

ولكن أنَّى له أن يَنْعم بنوم أو يهدأ براحة وأصحابه الذين كان معهم في طريق الغواية مازالوا مرتكسين في هذا الطريق المعوجِّ، ففكر كثيرًا في أمر هدايتهم ، وجعل هذا الأمر هو قضيته المهمة في حياته، وكان الأمل في هدايتهم يَحْدُوه إلى العمل على اجتذابهم ، وهو على يقين بأن الله تعالى الذي حوَّل قلبه إلى الهداية قادر على أن يحول قلوب أصحابه . . فقرر أن لايقاطع مجالسهم ، وأن يحضرها بروح الداعية المنقذ لابروح المستمتع المداهن .

وإذا بإيمانه القوي يدفعه إلى قول كلمة الحق التي سيغضب لها جميع أصحابه ، ولم يُبَال بما سينتج عن ذلك من احتمال تعرضه للأذى على أيديهم ، أو على الأقل محاولة هجره وإبعاده عنهم .

قال : ثم انصرف القوم من مجلسهم يومهم ذلك وهم مغمومون

بأمر يحيى بن عمرو وأخيه سليمان ، فلما كان في الليلة المقبلة اجتمعوا أيضًا فجلسوا ، فلما اطمأن بهم المجلس أقبل عليهم يحيى بن عمرو فقال : ياإخوتي وياأخلائي ومن تقر عيني بصلاحهم واجتماع كلمتهم، إنه ينبغي للراقد أن يستيقظ من رقدته ويستجلي عن غشوته، ومهما شككتم في شيء فلا تشكوا في الموت، إنه نازل بي وبكم، وأسأل الله تعالى العصمة والتوفيق والتسديد لي ولكم، والسلام ، ثم أنشأ يقول :

دعوتكمُ للرشد والنصح جاهدا ... ومازلت للإخوان مُذْكنت ناصحا

فإن تقبلوا نصحي تنالوا سعادة ... وتأتوا طريقا بيِّنَ القصد واضحا

ومن يترك القصد المنيرَ طريقَه ... يلاقي غدًا نارًا ويخلد كالحا

وهكذا تبين لنا في هذا الخبر المؤثر الذي عاد فيه هؤلاء الفتية إلى رشدهم بعد أن ارتكسوا في الغواية أن هداية رائدهم إلى الحق وهو يحيى بن عمرو القرشي كانت بعد سماعه نداء الجهاد ، حيث أحيى الجهاد ضميره ونبهه من غفلته ، فتحول إلى داعية هدًى يحاول إنقاذ أحبته من الهلاك الذي كان مشاركا لهم فيه .

وبهذا نلمس فائدة مهمة من فوائد إحياء الجهاد في سبيل الله تعالى ، حيث يتنبه الغافلون والسادرون في لهوهم إلى ماتعانيه أمتهم، ومايُحدق بها من خطر الهلاك والذلة على يد الأعداء، فَتَحيَى في نفوسهم معاني التحدي للأعداء ، والحفاظُ على مجد الأمة وعزها المتمثل في بقاء دينها ودولتها .

وحينما يقارن اللاهون العابثون بين وضعهم المزري وقد تعجلوا

نصيبهم من النعيم في حياتهم الدنيا ونسوا آخرتهم ، وبين وضع المجاهدين الذين طلقوا الدنيا ورفضوا متاعها الزائل ، غيرةً على آخرتهم ، وحرصا منهم على رفعة درجاتهم في الجنة . . حينما يقارنون بين هذين الوضعين تسري في كيانهم روح قوية تعصف بهم، فتجعلهم يترفعون عن الدنايا التي كانوا يعتبرونها قوام الحياة وبهجتها، وتطمح عقولهم نحو رضوان الله تعالى ونعيم الجنة ، فيرون أن أقرب الطرق إلى ذلك أن يُقدِّموا أرواحهم فداء لدينهم وإخوانهم المسلمين.

وهكذا فعل هؤلاء الفتية بعدما هداهم الله تعالى ، حيث شاركوا في معركة فتح« طوانة »وكانوا عاملا مهمّا في الفتح،وقدموا أرواحهم جميعًا شهداء في سبيل الله تعالى .

هذا ولو نظر السادرون في غيهم اللاهون عن حماية أمتهم ومستقبلها . . لو نظروا إلى مصلحتهم الدنيوية المستقبلية فضلاً عن الآخرة لهبُّوا سراعا للدفاع عن بلادهم ودولتهم لأن التمتع الذي يعيشون فيه في ظل الأمن والرخاء القائمين على استقرار الدولة وانتصارها على الأعداء سينقلب رأسا على عقب حينما يستولي الأعداء على دولة الإسلام ويتخذون المسلمين عبيدًا لهم .

إن هؤلاء الذين يستمرون في لهوهم ولايشاركون أمتهم في البناء والحماية والدفاع يشبهون من يعيش في بستان يَجْني منه مالذَّ وطاب وهو يشاهد حريقا هائلا على مسافة منه ويتوقع عقلاً أن يصل إليه ليحرق في بستانه الأخضر واليابس ، وهو مع ذلك غارق في متعته ولهوه ولايشارك في صد هذا الحريق الذي أفنى ما حوله .

فهل يُعتبر هذا من العقلاء ؟

فكيف الحال إذا كان بالجهاد في سبيل الله تعالى مستقبل الدنيا والآخرة ؟ وهل تُوضع الدنيا بكل مافيها من نعيم في ميزان مع الآخرة؟ ! هذا وإننا لنجد في الأسلوب التربوي الذي سلكه يحى بن عمرو القرشي دلالةً على تفوق ذلك المجتمع من الناحية التربوية.. هذا التفوق الذي كان نتيجة لِعلوٍّ كعب العلماء آنذاك في الدعوة والتربية ، فهو لمَّا هداه الله جل وعلا لم يقاطع رفاقه الذين تحولوا في عينه بعد الهداية إلى رفاق سوء ، بل جعل أكبر همه أن يحاول إنقاذهم من مواطن الهلاك وأسباب الشقاء .

وبالرغم من كونهم لاموه وعنَّفوه وشدَّدوا النكير عليه .. وبالرغم من هفوتهم الظاهرة حيث ناشدوه الله تعالى أن يقرهم على باطلهم وأن يسكت عن دعوة الحق فإنه لم يغضب، ولم يُشغِل نفسه في رد باطلهم أو الدفاع عن نفسه ، وإنما ركز في أبيات من الشعر على إيقاظ ضمائرهم التي لايزال فيها بقية من حياة ، وذلك بتذكيرهم بمصيرهم بعد الموت ، وكان لهذا المنهج القويم أثر ظاهر في هداية من اهتدى منهم ، ثم سلك إخوته الذين هداهم الله تعالى نفس هذا المنهج مع بقية المجموعة كما سيأتي .

قال عيسى بن دأْب راوي الخبر : ثم أقبل عليهم سليمان بن عمرو فقال : ياإخوتي ومن قد عظمت حقوقهم عليَّ ، وابيضَّت أيديهم عندي ، إنكم قد علمتم ماافترقنا عليه في ليلتنا الماضية، ومادعاكم إليه أخي يحيى بن عمرو الناصح لكم الشفيق عليكم، فإن تجيبوا إلى التوبة والنزوع عما أنتم عليه فحظَّكم أصبتم، وإلى الخير

أجبـتم، وإن تقيمـوا على ماأرى من لغطكم واتبـاعكم أهواءكم فإني أسأل الله لكم التوفيق - والسلام .

ثم أنشأ سليمان بن عمرو يقول :

سـألـت إلـهـي أن يؤلف بيننا   على الخير كالتأليف في سائر الدهر
فقد عشتمُ عصراً وعصراً وإننا   لـفـي غمـرة جهلاء نهوي ومااندري
نُلَجلج في بحرٍ سكارى بِحَيرة   فحـتَّى متـى لسنا نفيق مـن السكر
وتـوبـوا تنالـوا جنة الخلد إنما   ينال جـنان الخلد من كان ذا صبر

قال : فلما سـمع بشر بن مطر الأزدي مقالة يحـيى وسليمان بن عمرو واستحكم قولهما في قلبه أعجبه ذلك ، ثم قال : لقد علم من أُعِين عقلا وأَحضرهَمّا أين موضع الحق - والسلام .

ثم أنشأ يقول :

لعمري لئن بعت الهداية بالعمى   وآثرت غير الحق إني لخاسـر
أأتــرك حــظي بعد إذ أنـا قـادر   على أخذه والحق فيه بصائر[1]
سأُجبر نفـسي عـن هواها وغيها   بصبر قويٍّ الحزم والحر صابر

قال : فلمـا سمع القوم مـقالة بشر بن مطر الأزدي غـمَّهم ذلك غما شديداً ، ثم أقبل هارون بن الحـصين على أصحابه فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون، ماأعظم الرَّزية بفرقـتكم، وأجلَّ المصيبة بتباعدكم! والله ماأظن هذا الأمر إلا مشتِّتًا جماعتنا ، مكدرا علينا صفو عيشنا،

---

(١) يعني هل أترك حظي من نعيم الآخرة وأنا قادر على أخذه بالعمل الصالح في الدنيا؟

لأن الذي دعوتنا إليه من مزايلة مانحن فيه شديد ، وهو أثبت وأرسخ من أن يزيله العظات أو يقلعه الصفات .

قال : ثم افترقوا أيضًا ليلتهم مغمومين .

وهكذا وجدنا هؤلاء الثلاثة الذين هداهم الله حريصين على هداية رفاقهم بالكلام المؤثر نثرًا وشعرًا مع التركيز على ترغيبهم بالجنة وترهيبهم من النار ، وآخرين من المجموعة كانوا يقومون بدعوة مضادة للبقاء على ماهم فيه من اللهو والمعاصي .

ولكن الله تعالى أعان دعاة الخير منهم بالرُّؤَى الصالحة التي أراها اثنين من رفاقهم كان لها الأثر في هدايتهم .

يقول عيسى بن دأب في سياق روايته : فلما كان في الليلة الثالثة اجتمعوا فلما اطمأن بهم المجلس أقبل عليهم محمد بن زرعة العبدي فقال: ياإخوتاه اسمعوا عني كلامي وتدبَّروا بعقولكم فقد أتيتكم بأعجوبة، فقالوا : هات مابدا لك ، فقال: اعلموا أني فارقتكم الليلة وصرت إلى منزلي [فأرقت] (١) أرقًا شديدًا ، حتى إذا كان قبيل الصبح أغفيت إغفاءة فإذا أنا بآت قد أتاني في منامي وهو يقول هذه الأبيات :

ياتارك القصد بعد معرفة ... وسالكًا غيره من الطرق
يحيى وأصحابه على رشدٍ ... كما جلا الليلَ ساطعُ الفلق
فلا تكونَنَّ كالمقيم على ... دَحْضٍ مَزَلٍّ أشفى على غرق

---

(١) ليست في الأصل .

قال : فلما سمعت ذلك استيقظت فزعًا مرعوبا حتى كاد الخفقان أن ينزع قلبي حتى سكَّنني من كان بحضرتي .

قال : فأقبل عليه يعقوب بن عبد الكريم الأنصاري، فقال: ياأخي فكأني والله وإياك إنما كنا على أمر واحد غير أن الألفاظ مختلفة، وذلك أني قمت عن المجلس حين افترقنا بالأمس وبي من الحرقة(١) والأسف لتشتيت الفرقة ما لاأبلغ وصفه حزنا على إخواني، ومارأيت من مفارقتهم لنا ونقضهم علينا مانحن فيه من الألفة والمودة، فأتيت إلى منزلي ، وظللت عامة ليلي أدير عيني على الغمض فلا أقدر على ذلك فبينا أنا كذلك بين النائم واليقظان إذ أنا بهاتف يهتف بي وهو يقول :

ياخائضًا في غمرة الجهل وحائدًا عن واضح السُّبُل
لستَ على شيء فلاتكذِبَنْ في راجع التوبة في مهل
من قبل يوم معظَمٍ هائل يُشيب رأسَ المرضِع للطفل

فلما سمعت ذلك استيقظت ومامعي شيء من عقلي، فهذا والله ياإخوتي مارأيت .

فلما سمع القوم ذلك عجبوا وجعل بعضهم يقول لبعض: كيف حتى خُصَّ محمد بن زرعة ويعقوب بن عبد الكريم بهؤلاء الهواتف من بيننا ؟ هذا سيكون لنا نبأ .

قال : ثم أقبل سعيد بن إسماعيل الأسدي على محمد بن زرعة

(١) في الأصل الفرقة .

وهو يقول :

لـولا الذي أضمرتَ من غدرةٍ ماراعَكَ الهاتـف إذ يهتــف
خُصصتَ بالهاتــف مــن بيننا مالك في قولك لاتنصــف
والله رب العرش يــاإخـوتــي فــإنني مجـتهداً أحـلــف
لاخنت مـــن أهوى ولاشتَّمته جهرا ولامثلي به يـوصف

قال : ثم أنشأ هارون بن الحصين التميمي هو يقول :

أَبالأحلام أسـلو عـــن هواي لأقــوام أَتَـوْا بالـترَّهــات
أتــونــا يزعمـون بـــأن آتٍ أتى بنصيحةٍ عـنـد البيات
يحضُّهمُ عـلى هـجـر وغــدر وقطع الحبـل منا والشتـات
فمن يك راغبا عن وصل إلْفٍ فلست براغب حتى الممات

قال : وتـفرق القـوم أيضًا ليلتـهم تلك وقد وفق الله عـز وجل للتوبة خمــسة نفر ابني عمرو وبشر بن مطر الأزدي ومـحمد بن زرعة الأزدي ويعقـوب بن عبـد الكريم الأنصاري، وبقــي منهم خمـسة : هارون بن الحـصين وأحمد بن الحـصين وعبـد الله بن عمـرو الطائي وسعيد بن إسماعيل الأسدي وأحمد بن محمد اليشكري (١) .

وهكذا رأينا مثـالا من المعركة الدائـرة بين العقول السليـمة وهي تنادى أصحابهـا بالعودة إلى طريق الهداية ، وبين العواطف المتـأججة وهي تنادي بالبـقاء على طريـق الغواية ، حـيث بات اثنان من هؤلاء الـفتية بشرٍّ ليلـة مـن القلق والأرق، حـتى مـنَّ الله تعالى عليهما بمن

(١) الفتوح لابن أعثم ٧/١٢٧ - ١٣٠ .

أنقذهما من حيرتهما ، وحسم تلك المعركة لصالح العقول السليمة .

ولاريب أن البقية - وإن أظهروا بشيء من التعصب بقاءهم على غوايتهم - يعانون من هذه المعركة ، ولكن لم يكن حان وقت هدايتهم وانتصار عقولهم السليمة على عواطفهم المنحرفة .

ولم ييأس هؤلاء الذين تابوا من هداية أصحابهم ، بل ظلوا يدعون الله تعالى لهم ويحاولون معهم ذلك بشيء من الجهد المنظم، حيث تولى كل واحد منهم الكتابة لواحد من أولئك إلى أن هداهم الله تعالى .

يقول عيسى بن دَأب : وجعل هؤلاء الخمسة الذين قد تابوا يدعون الله ويتضرعون في أن يَرجع[1] بقلوب إخوانهم إلى ماهم عليه من التوبة، فلم يزالوا كذلك إلى أن استجاب الله منهم دعاءهم في إخوانهم وأقبل بقلوبهم إلى طاعته .

قال : وكتب هارون بن الحصين إلى يحيى بن عمرو القرشي بهذين البيتين :

نفسى الفداء لمن جلَّى الإله به   عنَّا العمى ووقاه مورد التلف
قد كان مابيننا في الدين مختلفا   فاليوم نحن جميعا غيرُ مختلف

قال : ثم كتب أخوه محمد بن الحصين إلى سليمان بن عمرو أيضًا بهذين البيتين :

أتتني منك موعظة   يقومٌ نصحها أوَدي
فجئتك تائبا في اليو   م خوفًا من عقاب غد

---

(١) في الأصل يراجع .

قال : ثم كتب أحمد بن محمد اليشكري إلى محمد بن زرعة العبدي بهذين البيتين :

لقد قرأت كتابًا منك هيَّجني   يدعو إلى الله إسرارًا وإعلانا

أجبته ودعوت الله مجتهدا   كيما[1] نكون على الخيرات أعوانا

قال : ثم كتب سعيد بن إسماعيل الأسدي إلى يعقوب بن عبدالكريم الأنصاري بهذين البيتين :

أتاني كتاب منك فيه مواعظ   تحضُّ على خير وتدعو إلى رشد

فأبصرت مافيه من الحق والهدى   وفارقت من أهوى على أجهد الجهد

فلما وصلت هذه الأبيات من هؤلاء الخمسة إلى إخوانهم فرحوا لذلك واستبشروا ، واشتدَّ سرورهم ، ثم إنهم ابتهلوا إلى الله عز وجل في أن يُقَوِّي عزمهم على ماعزموا عليه من التوبة ، فاستجاب الله لهم ذلك .

قال : ثم إنهم تواعدوا أن يجتمعوا في مشربة لهم فيكلم بعضهم بعضا ، فاجتمعوا في مشربتهم تلك ، قال : وهي مشربة معروفة بالمدينة يقال لها مشربة التوبة، وهي مشربة على العطَّارين بالمدينة ، قال: فلما اجتمعوا هنالك [تعانقوا] [2] وبكى بعضهم إلى بعض لطول الفرقة وماكانوا عليه من التباعد ، وحمدوا الله تعالى على ماألَّف بينهم من التقوى وسألوه التوفيق والعصمة مما هم فيه .

---

(١) في الأصل كما

(٢) في الأصل اعتنقوا .

وهكذا تمت توبة هؤلاء الخمسة ، واجتمع شمل الفتية العشرة على الهدى وطاعة الله تعالى، بعدما كانوا يجتمعون على الضلال ومعصية الله جل وعلا .

ولقد كان أولئك الخمسة الأوائل أوفياء لإخوانهم، حكماء في دعوتهم حيث قاطعوا مجالس اللهو ، وظلوا على صلة بإخوانهم الذين مازالوا في غوايتهم عن طريق المكاتبة الفردية .

ولاشك أن الإنسان حينما يخلو لنفسه، ثم يتلقَّى في تلك الحال كتابا يخاطب عقله، ويدعوه إلى رشده، فإن النفس تكون أكثر ميلا إلى الهدى وقبولا لنداء الحق ، ذلك لأن العاطفة آنذاك تكون خامدة، وليس لدى الإنسان ما يُثير كَوامن النفس في اتباع الهوى، لبعده عن مجالس اللهو ورفقة السوء، فينفرد العقل بتدبير النفس، فإذا كان لدى الإنسان بقية من إيمان وقابلية لسلوك طريق الخير فإن العقل يقود النفس إلى رشدها .

وكم للرسائل الخاصة في تاريخ الدعوة من أثر بالغ، ونتائج مثمرة في مجال الهداية والالتزام بالطريق المستقيم !

وهل كان إسلام بطل الإسلام خالد بن الوليد إلا من أثر كتاب بعثه إليه أخوه الوليد،يَذْكر فيه إشادة النبي ﷺ به ورغبته في إسلامه؟

ثم لاننسى دعاء أولئك الشباب الخمسة لإخوانهم في ظهر الغيب، حيث كان بعضهم يوصي بعضا بالدعاء لهم بالهداية .

ولاشك أن وضعهم وهم يحترقون أسًى على إخوانهم إذا تصوروا الجنة وحرمان إخوانهم من نفح نعيمها وتصوروا النار وتعرضهم للفح

جحيمها . لاشك أن قلوبهم والحال هذه ستكون حاضرة مع الله تعالى بكل مداركها وتصوراتها ، والله سبحانه وتعالى كريم رحيم، لايرد دعوة صادقة صادرة من قلب متلهف عظيم الرجاء قوي الأمل بعطفه وكرمه .

أوليست قلوب العباد بيد الرحمن جل جلاله يصرفها كيف يشاء؟ ثم أليس الدعاء الصادق سببا في تحويل القلوب من الغواية إلى الهداية؟ إن الدعاء الخالص وسيلة اتصال عُظمى تقطع حجب الليل البهيم وتجاوز طبقات الفضاء العالية لتصل إلى مدبِّر الكون جل جلاله فيكون بهذا الدعاء هداية الحيارى ، ونصر المظلومين ، وكشف الكربات ، وغير ذلك من صنوف القضاء، المترتبة على الدعاء .

فهذا الخبر نموذج صالح للدعوة إلى الله تعالى، ويشتمل على فوائد جليلة :

منها أن من كمال الهداية أن يسعى المهتدي لإنقاذ أصحابه الذين كان معهم لأن أمر هدايتهم متعين عليه، حيث إنه أعرف الناس بحالهم، وأقدر الناس على مخاطبتهم والتأثير عليهم .

ومنها أن المهتدي عليه أن لاينظر إلى الذين مازالوا على الغواية نظرة استعلاء واستخفاف ، بل عليه أن ينظر إليهم نظرة رحمة وعطف، وأن يحاول إنقاذهم من الهلاك الذي وجَّهوا أنفسهم نحوه.

ومنها أن لايكتفي الداعية بمحاولة واحدة في هذا المجال، بل عليه أن يكرر المحاولات ، وأن ينوع الأساليب التي يستخدمها في سبيل الوصول إلى هدفه السامي .

هذا وبعد اجتماع أولئك الفتية على الهدى وجّههم رائدهم يحيى ابن عمرو القرشي إلى الجهاد في سبيل الله تعالى، وخرجوا إلى الشام استجابة لنداء أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان الذي أمر بجمع الجيوش من بلاد الإسلام لغزو الروم كما سبق .

ووصل هؤلاء الفتية إلى جيش المسلمين المرابط بمرج دابق بقيادة مسلمة بن عبد الملك .

ولما سار الجيش الإسلامي لجهاد الروم سار معهم هؤلاء الفتية، وشاركوا في معركة طُوَانة التي تم بعدها فتح هذه المدينة، وقد ذُكِر من أخبار هؤلاء الفتية أنهم كانوا في مقدمة من برز لأبطال الروم، وقد جاء بالتفصيل ذكر ماجرى من بعضهم كما جاء في رواية عيسى بن دأب حيث قال عن جهاد أحمد بن الحصين التميمي :

ثم حمل على العلج - يعني الرومي - فضربه ضربة على فخذه فقطعها فسقط العلج ميتا ، قال: وإذا بعلج آخر يقال له بولص قد بدر إلى أحمد بن الحصين ، قال : فنظر إليه أحمد فقصد نحوه وهو يقول :

دونك حربًا لاتقيه تُرسي | صبرًا على المكروه مني نفسي
كيما أنال منزلا في القدس | فإنما الدنيا كيوم أمس

قال : واختلفا بطعنتين ، طعنه العلج في خاصرته فجَنْدَلَه قتيلا -رحمه الله - .

قال: فلما قُتل هارون بن الحصين (١) ، وأخوه أحمد خرج من

(١) يعني التميمي وهذا دليل على أنه استشهد قبل أخيه أحمد .

بعدهما سعيد بن إسماعيل الأسدي نحو ذلك العلج وهو يقول :

يابولِصَ الـــروم إليك نفسي   قد طال في ظلٍّ الخطايا حبسي
اليوم أحمى إخوتي بالخمسي   كيما يـكون بطن سبْع رمـسي(١)

قال :والتقيا بضربتين ، ضربه الأسدي ضربة جندله قتيلا .

قال: وخرج من بعده علج آخر يقال له قسطنطين الأصغر، قال: فقصده الأسدي وهو يقول :

يا أيها الـداعـي إلـى الجـــلاد   فـي حـومـة الأبـطال والأنجاد
أتـــاك لــيـــث سَلِسُ الـقيـاد   ذو صـولـة يكـرهـها الأعـادي

ثم تطاعنا برمحـيهما فلم يصنعـا شيئا، وتضـاربا بسيفيهـما فلم يصنعا شيئًا ، فاعتنق كل واحد منهما صاحبه حتى سقطا عن فرسيهما إلى الأرض ، فشد عليه العلج بخنجر كان معه فوجأه في نحره فقتله - رحمه الله - .

قال : وخـرج من بعده يعقـوب بن عبد الكريم الأنصـاري نحو قسطنطين هذا العلج وهو يقول :

لَـتـذهَبَنَّ الـيـوم نفـــسي أسـفا   إذ كـنـت بـعـد خـمـسة مخلَّفا(٢)
قد نلت من لذة عيشي ماصفا   حَسْبِي الَّذي عانيت حسبي وكفى

---

(١) يعني أحميهم بالقوة لأستشهد فيكون جسدي في بطون السباع .

(٢) هذا يدل على أنه قد استشهـد خمسة من هؤلاء الفـتية ، وقـد ذُكر منهم هارون بن الحصين التـميمي وأخـوه أحمد وسـعيد بن إســماعيل الأســدي وهذا يدل على سبق استشهاد يحيى بن عمرو القرشي وأخيه سليمان .

ثم حمل الأنصاري على قسطنطين العلج فقتله، ثم وقف ودعا إلى البراز فلم يخرج إليه أحد ، وكاعت الروم بعد قتل قسطنطين .

قال: وجعل مسلمة بن عبد الملك ومن معه من المسلمين يتعجبون من إقدام هؤلاء الفتية على الموت، وصبرهم على الحرب، وكل واحد منهم يتلو صاحبه .

قال : والتفت بشر بن مطر الأزدي إلى إخوته الذين بقوا معه : يعقوب بن عبد الكريم الأنصاري، وأحمد بن محمد اليشكري، ومحمد بن زرعة العبدي، فقال: ياإخوتي إنه قتل منا خمسة ومضوا لسبيلهم ، ونحن ههنا أربعة ، ونرجوا أن نلحق بهم عن قريب إن شاء الله (١) ، ولكن هل ترون مأرى ؟ فقالوا: وماترى يرحمك الله؟ فقال : وَيْحكم إني رفعت رأسي إلى السماء أنظر إلى هذه الغمامة التي قد أظلت هذا العسكر فرأيت عجبا عجيبا ، وذلك أني رأيت رجالا لم أر مثلهم ولامثل صورتهم ساعة قط، ومعهم خيام بيض لم أر على حسنها شيئًا ، ونظرت إلى نسوة يطلعن علينا من هذه الغمامة ويضحكن إلى إخواننا هؤلاء الذين قُتلوا ، فهذا مارأيت .

قال : فعند ذلك اقشعرت جلود القوم، ووقفت شعورهم واشتاقوا إلى ماشوَّقهم إليه صاحبهم بِشْر بن مطر الأزدي، ثم غلبتهم أعينهم بالبكاء والترحم على إخوانهم ، وجعل بعضهم يقول لبعض:

---

(١) يقصد بالخمسة يحيى وسليمان ابني عمرو القرشي وهارون وأحمد ابني الحصين التميمي وسعيد بن إسماعيل الأسدي ، وبقي العاشر لم يذكر وهو عبد الله بن عمرو الطائي فلعله مات قبل المعركة .

إنه يجب علينا الآن أن لانقصِّر في جهاد هؤلاء القوم الكفار، فعسى الله أن يجمعنا مع إخواننا في مستقر رحمته .

قال : فكان أولَ من تقدم منهم إلى الحرب يومئذ بشر بن مطر الأزدي ، وهو الذي رأى مارأى ، فجعل يرتجز ويقول أبياتًا مطلعها :

من كان في شك وفي تَعَامِي فقد رأيت الحور في الخيام
صبرًا لهذا يابني الكرام حتى تحلُّوا ساحة السلام

قال : ثم تقدم محمد بن زرعة العبدي وهو يقول :

إن كان لابد مصيري للفنا فما مقامي بعد خمس ههنا
إن نلت ماأبغي فقد نلت المُنَى جناتِ عدن ليس فيها مِنْ عَنَا

قال : ثم تقدم أحمد بن محمد اليشكري وجعل يرتجز ويقول :

لاخير في العيشة بعد صحبي حسبي من العيشة حسبي حسبي
لأرجع اليوم وأقضي نحبي ثم أحُلُّ في جنان ربي

قال : ثم حمل هؤلاء الفتية فقاتلوا قتالا شديدًا ، وجعل يعقوب ابن عبد الكريم الأنصاري يرتجز ويقول :

هيهات مني سفهي وطيشي أقصد للحصن أمام جيشي
قد ذهب السادة من قريش[1] لاخير لي من بعدهمْ في العيش

قال : ثم حمل يعقوب بن عبد الكريم الأنصاري حملة يريد باب الحصن قال: ولحقه إخوته الثلاثة حتى صاروا إلى باب حصن طوانة،

---

(١) يعني بذلك يحى وسليمان ابني عمرو القرشي .

فجعلوا يقاتلون أشد القتال ، قال: وصاح مسلمة بالمسلمين فحملوا، وانكشفت الروم من بين أيديهم كشفة قبيحة .

قال : وجعل قوم يقاتلون ، وقوم ينقبون السور نقبا واسعًا، وبادر يعقوب بن عبد الكريم الأنصاري فدخل الحصن من ذلك النقب وجعل يقاتل أهل الحصن وحده، فلم يزل كذلك حتى قطعت إحدى قدميه، ووثب قائما على تلك الحالة يقاتلهم على فرد قدم وهو يقول:

أضرب بالسيف على فردِ قَدَمْ والحرُّ لايجزع من وقع الألم
والموت بعد الإلف أشفى للقَرِم مع الذي أرجوه من باري النَّسَم
أرجو جنانا حققت كل النعم معْ فتية كانوا لعمري كالبَهَم[1]
في مجمع الحرب إذا الحرب اضطرم خوفا من الله العزيز ذي النِّقم

قال : فلم يزل الأنصاري يقاتلهم وحده ويدفعهم عن ذلك حتى دخل إليه إخوته الثلاثة ، فأعانوه ودفعوا الروم عن ذلك النقب، ثم إنهم كبَّروا وصاحوا بأصحاب مسلمة ، فدخل الناس من ذلك النقب وفتحوا باب الحصن، والأنصارى ينزف الدم من رجليه حتى مات رحمه الله وقُتل الثلاثة الذين كانوا معه - رحمة الله عليهم أجمعين[2].

وهكذا ضرب هؤلاء الفتية المدنيون أمثلة رائعة في الشجاعة

---

(١) يعني أنهم كانوا صغارا ، شبههم بصغار الغنم .

(٢) الفتوح لابن أعثم ٧/ ١٢٥ - ١٣٤ ط دار الكتب العلمية ، و٣/ ٦٥ ٧٥ ط دار الفكر.

والإقدام والتضحية ، فشاركوا في المبارزة التي هي أخطر أنواع الحرب، وكل واحد منهم يتعرض للشهادة ويتمناها، ولما ظفر بها بعضهم قصد الباقون مواقع الخطر ليلحقوا بإخوانهم ، فكانوا أول من دخل في ذلك النقب الذي يُفضي إلى داخل حصن الروم، والغالب على من يقتحم ذلك المضيق أنه يُقتل لأن الأعداء يكونون قد أعدوا العدة له ، فظفر هؤلاء الفتية بالشهادة جميعا بعدما أثخنوا في الروم وفتحوا الطريق للمسلمين ليدخلوا من ذلك النقب .

وتمَّ فتح مدينة « طوانة » وكان لهؤلاء الفتية مشاركة فعالة في ذلك الفتح، وطُوي ذكرهم في الدنيا ولكن فُتحت لهم صفحة جديدة في الآخرة ، حيث انضموا إلى قافلة الشهداء، فتجددت لهم الحياة الخالدة بعدما فقدوا الحياة الفانية ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٦٩] .

* * *

فتح عمورية :

لما انتهى المسلمون من فتح طوانة سار مسلمة بن عبد الملك بالجيش الإسلامي إلى عمورية، وبلغ ذلك أميرها « شمعون » فوجه إلى المسلمين قائداً من قادته يقال له « وَرْسيب » ومعه أربعون ألفا، وأقبل شمعون من ورائه ومعه ثمانون ألفا ، وبلغ ذلك مسلمة فوجه قائده البطَّال بن عمرو في مقدمته ومعه عشرة آلاف بكامل تجهيزهم، فالتقى بمقدمة جيش الروم ، واقتتلوا ، وأسرع القتل في المشركين، وحمل « ورسيب» على البطال وهو لايعلمه، وعلم البطال أنه ورسيب فضربه على رأسه فقدَّ البيضة والهامة وخر ورسيب قتيلا وانهزم جيشه .

وعلم بذلك شمعون فزحف بخيله ورَجله يريد لقاء المسلمين وأرسل البطال بن عمرو إلى مسلمة فخبَّره بذلك، فأقبل مسلمة بجماعة المسلمين ، فالتقوا بأعدائهم واقتتلوا قتالا شديداً، وترجَّل مسلمة فنزل عن فرسه ونزل الناس معه ، وصاح صائح المسلمين: أيها الأمير البشرى فقد قتل الله شمعون ، فكبَّر مسلمة وكبر المسلمون معه، وإذا بالبطال قد أقبل وفي يده رأس شمعون حتى ألقاه بين يدي مسلمة .

فعند ذلك وثب مسلمة واستوى على فرسه واستوى الناس معه على خيولهم ، ثم حمل وحمل الناس معه ، وانهزم الروم وولوا الأدبار، وأسرع المسلمون إلى باب عمورية فدخلوها بالسيف عنوة، فقتلوا مقاتلتها وغنموا أمتعتها وأموالها .

وكـان للمسلمين أشـعار حـماسـيـة في تلك المعركـة منها قـول عبدالرحمن بن صعصعه بن صوحان العبدي :

أنا ابن عبد القيس جدِّي صعصعة بذو البأس والإقدام عند المعمعة
إذا التقى الأبطـال وسْــط المعمعة والروم قد سارت إلينا مجمعة
ومن يخاف الله فاللهُ معه

ومنها قول عبد الله بن جرير بن عبد الله البجلي :

أنا ابن ذي الفضل فتى بجيله جرير شيخي ولــه فضيله
فـضيـلة عـظـيمـة جـلـيـلـه من النبيِّ صاحب الوسيله (١)

وفي هتين المعركتين أظهــر المسلمون بسالة عالية وثبـتوا لأعدائهم ثباتًا عظيمــا ، فقد انتصــرت مقدمة جيش المسلمين المـكونة من عشرة آلاف بقــيادة البطال بن عــمرو علــى مقــدمة جـيش الروم المكونة من أربعين ألف مقاتل بقيادة ورســيب ، وكان للبطال بن عمرو الأنطاكي أثر كبير في المعركتين حيث قتل قائد المقدمة ورسيب وقائد جيش الروم أمير عــمورية شمعــون ، ومعلوم أن قتل قادة العــدو يوقع الفشل في صفوفهم ويقودهم إلى الهزيمة كما تقدم لنا أمثلة لذلك .

* * *

(١) الفتوح لابن أعثم ٧/ ١٣٥ - ١٣٦ .

فتح نقفورية :

ثم سار مسلمة بن عبد الملك من عمورية يريد مدينة نقفورية فلما أشرف المسلمون عليها إذا هم بنقفور الأكبر قد خرج إليهم في زهاء سبعين ألف فارس سوى الرجالة ، فلما نظر إلى جيش المسلمين صاح بأصحابه : أن احملوا ، وحمل معه أصحابه، فانكشف المسلمون أمامهم وقتل منهم جماعة ، فنادى مسلمة في أصحابه بأعلى صوته: ياأهل الشام لاشام لكم ، وياأهل العراق لاعراق لكم ، وياأهل مصر لامصر لكم ، إن أنتم ولَّيتم الأدبار ، اليوم يعلم الله منكم حسن الصبر واليقين .

ونادى محمد بن مروان وقال : ياأهل الإسلام أما تستحيون أن ينهزم أهل الدين والقرآن من بين أيدي الكفرة وعبدة الصلبان ! أما ترغبون فيما رغبكم فيه ربكم وأتاكم به نبيكم [من] النصر، والله ينصركم ويثبت أقدامكم .

فعند ذلك صدقت عزائم المسلمين وتراجعوا إلى الروم ، والتحم القتال، وحمل نقفور على مسلمة بن عبد الملك فضربه ضربة على بيضته [والبيضة مايلبس على الرأس من الحديد للوقاية] فنكَّسه إلى الأرض ، ثم صاح بالروم فحملوا على المسلمين حملة كادوا أن يزيلوهم عن مواقفهم غير أنهم ثبتوا للروم وأشرعوا الرماح في وجوههم، ورشقوهم بالسهام ، ورجعت الروم إلى ورائها، ووثب مسلمة فاستوى على فرسه ثم نادى بأعلى صوته : أيها الناس إليّ إليّ، أنا مسلمة بن عبد الملك : يوجب الله لكم الرضوان ، فاجتمع

عليه الناس ثم تواصوا بالصبر، ووعظ بعضهم بعضا، وحملوا على الروم كحملة رجل واحد ووضعوا فيهم السيوف، وكان نقفور أول قتيل.

وعلمت الروم بمقتل نقفور فولّوا الأدبار والسيف يأخذهم حتى صارت القتلى بينهم كالتلول بعضهم على بعض.

وسبق البطال بن عمرو وجماعة من المسلمين إلى باب مدينة نقفور، فهجموا على أهلها فقتلوا من قدروا عليه، وأقبل مسلمة في جماعة من المسلمين حتى أحاطوا بالمدينة فاجتمعوا عليها، وغنموا مافيها (١)

وبعد: فهذه معركة كبرى من معارك المسلمين التي خاضوها ضد الروم، وقد كاد المسلمون فيها يتعرضون للإبادة مرتين، لأنهم لو انهزموا انهزاما كليا فلن يبقى منهم أحد حيث لاحصون لهم إلا ظهور الخيل.

وإن أبرز مواقف هذه المعركة قوة المسلمين الفائقة في الصبر واحتمال الشدائد، وسرعة الإفاقة بعد الصدمة الهائلة المباغتة، ففي تراجعهم الأول أمام هجوم الأعداء الصاعق ناداهم القائد مسلمة بن عبد الملك وذكرهم بأن مسئولية بقاء بلاد الإسلام بيد المسلمين معلقة بأعناق ذلك الجيش لأن الروم لن يكتفوا بهزيمة ذلك الجيش المنتخب بل سيتقدمون لاستعادة الشام وغيرها، وهذه لفتة جيدة حيث اعتبرهم حماة المسلمين وحراس دولة الإسلام، فعظّم في نفوسهم

(١) الفتوح لابن أعثم ٧/١٣٧ - ١٣٨.

الشعــور بالمسئولـية ، وانطلقوا في هجـومهم على الأعـداء بطاقاتهم الكاملة، كـما ذكَّرهم مـحمـد بن مروان بما وعـده الله تعالى لعـباده المجاهدين في سبيله من النصر والتمكين ، فكان لذلك أثره في ربطهم بالله تعالى واستمدادهم النصر منه جل وعلا .

ومن دلائل ثبات المسلمين وإخـلاصهم لدينهم أنهم لم يتزعـزعوا لما سقط قائدهم على الأرض، بل ثبتوا لهجوم الروم حتى ردوهم على أدبارهـم، وهذا مثل لإدراك المسئولية وحسن التصرف عند المفاجآت.

وفي قيام مسلمة بعد ذلك وإعـلانه عن موقعه ونداء المسلمين إليه دلالة على شجاعته حيث إن هذا الإعلان والنداء سيلفت أنظار الأعداء إليه .

* * *

فتح السماوة الكبرى :

وقد استمر المسلمون في سيرهم وفتوحاتهم وتوغلوا في بلاد الروم، وفي ذلك يقول المؤرخ ابن أعثم الكوفي: وسار المسلمون نحو مدينة « السماوة الكبرى » وبها يومئذ بِطْريق من البطارقة الرومية يقال له « إفريطون » في ثمانين ألفا من الروم ، وقد حصَّن السماوة قبل ذلك، ونصب على سورها عشرين منجنيقا وثلاثين عرادة (١) ، قال: فنزل مسلمة والمسلمون على السماوة ، ثم أمر بمجانيقه فنُصبت عليها من كل جانب وترامى الفريقان رميا متداركا ، ودامت الحرب بينهم أربعين يوما لايفترون عن ذلك ليلا ولانهارا .

فلما كان بعد ذلك أقبل بطريق من بطارقة الروم يقال له : «قرطس» إلى مسلمة بن عبد الملك حتى وقف بين يديه في جوف الليل فكفَّر له (٢) وقال : أيها الأمير إن السماوة حصن حصين، وفيها خلق كثير ، وليس يتهيأ لك أن تفتحها إلا أن يُفتح لك من داخلها فتدخلها ، وإن أفريطون هذا صاحب السماوة قد أساء إليّ ، وغصبني على ابنة لي فأخذها مني قهرا ، وقد عزمت على أن أفتح لك هذا الباب الذي هو مقابلك ، فإذا أصبحت فعبئ أصحابك ، واقترب من باب المدينة ، والْقَ الحرب بينك وبين الروم ، وقدِّم أبطال عسكرك بين يديك فإني فاتح لك هذا الباب الذي هو مقابلك .

قال : فقال له مسلمة : إن أنت فعلت ذلك حملتك وكسوتك وبررتك بعشرين ألف درهم وخلطتك بأصحابي .

---

(١) هي نوع من آلات الرمي أصغر من المنجنيق .

(٢) يعني وضع يده على صدره وطاطأ رأسه تعظيما على عادتهم .

قال : فقـال له قرطس : أيها الأمير إذا دخلت المـدينة فافعل من ذلك ماأحببت ، قال : ثم رجع قرطس إلى المدينة .

فلما كان من غد عبَّى مسلمة أصحابه كما كان يعبيهم قبل ذلك، ثم دنا من باب المدينة - وهي السـماوة - وبين يديه البطال بن عـمرو في فرسان من أصحابه ،قال :ثم عَطْعَطَت الروم[1] ، وكبَّر المسلمون فاختـلط الفريقان ،واشـتبكت الحرب على بـاب المدينة ، وفتح ذلك البطريق الباب ، واقتحم المسلمون معه ، فجعلوا يقتلون ويأسرون.

قال : وفـتح أفريطون بابًا آخـر من أبواب السمـاوة وخرج هاربا على وجهه ومعه خلق كثير من أصحابه حتى صار إلى مدينة من مدن الروم يقال لها المسيحية [2] .

وبعد : فإن في هذا الخبر مثلا من استعداد المسلمين الجيد، وذلك من ناحيـة إعداد القوة لقتـال الأعداء بما يتناسب مع عصـرهم، حيث كانوا يحملون مـعهم عددًا من المجانيق التي تعـادل المدافع في العصر الحـاضر ، وقـد كـان عـددها وافرًا حـيث أحـاطوا بهـا على المدينة المحـاصرة، وهكذا يـجب على المسلمين أن يطبـقوا قـول الله تعـالى ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ** ﴾ [3] ليكونوا في ذلك

(١) يعني نادوا بالحرب على طريقتهم .

(٢) الفتوح لابن أعثم ٧/١٣٩ - ١٤٠.

(٣) سورة الأنفال / ٦٠ .

على الأقل مثل أعدائهـم، إلى جانب مايتفوقـون به على جميع الأمم من السلاح المعنوي .

وفي هذا الخبـر مثل حَيّ لأثر العدل ومكارم الأخـلاق في كسب القلوب والظفر بولائهـا ونصرتها ، بغضِّ النظر عن العـوامل الأخرى التي تقتـضي الولاء والنصرة ، والتي أبرزها الاتفـاق في الدين ، ثم الاتفاق في اللغة والوطن والروابط الدنيوية .

كمـا أن فيـه مثـلا حيـا لأثر الظلم ومسـاوئ الأخلاق في نـفرة القلوب ومـيلهـا إلى الانتقـام ، والتـشفي مـن الظالمين ، بالرغم من الاتفاق في العوامل الأخرى التي تقتضي الولاء والنصرة .

فهذا القائد الـرومي الذي كان من عظماء ذلك البلد والذي أعلن ولاءه للمسلـمين واستعـداده لنصرتهم ، ثم قـام بتنفيـذ ذلك حسب اتفاقه مع المـسلمين ، إنما دفعه إلى ذلك اعتـباران : الأول أنه تعرض للظلم وانتـهاك العرض على يد أمـير تلك المدينة ، فنفـر منه وتربص الفرصة المناسبة للانتقام منه ، ولاشك أن النفـوس الأبية تتحمل كثيراً من أنواع الظلم ولكنها لاتتحمل انتهاك أعراضها .

والاعتبار الثاني : ملاحظة مااشتهر به المسلمون من العدل ومكارم الأخلاق ، حيث كانت أخبارهم الطيبة في ذلك تسبقهم إلى كل مكان يريدون فتحـه ، فتكون نفوس الشعـوب مهيأة لقـبول حكم المسلمين والاستنصار بهم على الظلمة الجبارين .

فلو كان المسلمـون المحاصرون لتلك المديـنة من جملة الأمم التي تريد الهيمنة على الأرض لبـسط جبروتها وظلمها لَمَـا كان هناك فرق

بينها وبين ذلك الجبار المسيطر على تلك المدينة ، وإذًا فتحمُّل جبروت القريب أولى من تحمل جبروت البعيد، ولكن لما سَبَقَتْ أخبار المسلمين وسيرتهم الحميدة في فتوحاتهم كان ذلك مشجعا لكل من مال إلى تقدير مكارم الأخلاق أو تعرض لظلم من طغاة قومه وجباريهم إلى أن ينحاز إلى صف المسلمين وأن يُظهر نصرتهم .

وفي هذه الحادثة عبرة لأصحاب المسئولية ، كي لايستهينوا بمن تحت ولايتهم ، وأن لايغتروا بما في أيديهم من القوة والسلطان ، فإن النفوس الأبية تصبر على الضيم مادامت تحت الغلبة والهيمنة ، فإذا لاحت لها فرصة للتشفي والانتقام سارعت إلى اغتنامها، وهذا الشعور سائد في عموم البشر ، ولكن المسلمين خاصة يتقيدون في كل تصرفاتهم بشرع الله تعالى ، حيث يغلِّبون جانب المصالح العامة على المصلحة الخاصة ، ويراعون جانب الإبقاء على دولة الإسلام والحفاظ على عزة المسلمين .

هذا وإن ماسخَّره الله تعالى في هذه المعركة من خروج ذلك الرومي الذي أبدى استعداده لنصرة المسلمين يعتبر مثلا من أمثلة تأييد الله تعالى لأوليائه المؤمنين لَمَّا كانوا أهلا لذلك ، ولِمَا يريد الله سبحانه بهم من إعزاز الإسلام ، فقد كانت تلك المدينة من المناعة بحيث يصعب على المسلمين فتحها من خارجها فقيض الله للمسلمين من يفتحها لهم من الداخل بدون تدبير منهم .

* * *

فتح مدينة المسيحية :

قال ابن أعثم الكوفي : واقترب المسلمون من المسيحية ، وبلغ ذلك إفريطون صاحب السماوة ، فنادى في جميع النصرانية فاجتمعوا إليه ، فخرج بهم من المسيحية ، وبين يديه بطريق يقال له : شمس في ثلاثين ألفا ، وإفريطون من ورائه في أربعين ألفا .

قال : فدنا القوم بعضهم من بعض فاقتتلوا قتالا شديدًا وحملت الروم بأجمعها على عساكر المسلمين حملة فهزموهم حتى ألحقوهم بالسماوة ، وقد قُتل منهم جماعة ، ثم رجع المسلمون عليهم فهزموهم حتى ألحقوهم بالمسيحية ، واشتبكت الحرب على باب المسيحية .

قال : وجعل « شماس » البطريق يحمل على المسلمين حملة بعد حملة فيقتل ويرجع إلى أصحابه ، حتى قتل نفرا من المسلمين .

قال : وحملت قبيلة من الروم على الضحاك بن يزيد السلمي فقتلوه وقتلوا معه جماعة من المؤمنين ، وتقدم أفريطون صاحب السماوة في جمهور بطارقة الروم ، فجعل يكافئ المسلمين .

قال : وقصده محمد بن عبد العزيز [يعني بن مروان] على فرس له أصدى (١) وهو يرتجز ويقول :

قد علم الروم ومن والاها ... وكل علج أقلف ساواها
أنّي إذا الحرب خَبَتْ لظاها ... ألقيتُ أخراها على أولاها

(١) يطلق الصدَّى على لطافة الجسم .

قال : واختلفا بطعنتين ، طعنه إفريطون طعنة فقتله، قال: فاغتمَّ المسلمون لقتل محمد بن عبد العزيز غمّا شديدًا ، وتقدم البطال بن عمرو حتى وقف حذاء إفريطون وهو يقول :

لابد من عرض ومن مقام … على مليك صمَدٍ منعِام
فجاهدي يانفس لاتُلامي … بكل عَضْبَ ذكَرٍ حسام

ثم حمل البطال على إفريطون ، والتقيا بطعنتين ، طعنه البطال طعنة جدَّله قتيلا ، ثم نزل فاحتز رأسه ورفعه على رمحه ، ثم كبَّر وكبر المسلمون معه .

قال : ونظرت الروم إلى رأس إفريطون وقد رفع فانكسروا لذلك انكسارا ، وألقى الله تعالى في قلوبهم الرعب ، فولَّوا الأدبار وكبَسَتْهم خيل المسلمين ، وأخذتهم السيوف ، فقُتل منهم خلق كثير وانهزم الباقون على وجوههم ، وسلَّموا مدينة المسيحية بجميع مافيها. فدخلها المسلمون عنوة فقتلوا من قتلوا ، واحتووا على غنائمها (١).

هذا وإن في هذه المعركة ثلاثة مواقف نعلق عليها بإيجاز :

الموقف الأول في مقدرة المسلمين الحربية التي تمثلت في سرعة عودتهم إلى القتال بعد الانهزام ، وهذا يدل على أن ماحصل لهم إصابة مؤقتة بسبب حرب مفاجئة لم يُعدُّوا لها أو بسبب تقصير في تطبيق بعض عوامل النصر ، ثم عادوا بعدها أقوى مما كانوا ،ودحروا قوة أعدائهم .

(١) الفتوح لابن أعثم ٧/ ١٤٠ - ١٤١ .

والثانـي موقف محـمد بن عـبد العـزيز بن مروان لما أقـدم على مبارزة ذلك الرومي الشجـاع ، وإن محط الإعجاب في ذلك ليس في مجرد المبـارزة ، وإنما هو في كون أبناء الأمراء آنذاك ينافسـون غيرهم في خـوض غمار أقـسى مراحل الحـرب ، ويغامـرون بأنفسـهم في مـوقف يكونون فيـه أقرب إلى الموت ، وهـذا دليل على علو التربيـة الجهادية التي كان الأمراء آنذاك يأخذون بها أبناءهم .

أما الموقف الثالث فهو في شجـاعة البطال بن عمرو وإقدامه على مـبـارزة ذلك الرومي الذي قـضى قـبله على صـاحـبه مـحـمـد بن عبدالعزيز، وإن مظاهر الشجاعة تبدو في هذا الموقف في مقدرته على الاحتفاظ بمعنويته وإقدامه ، مع مـاشاهده من مصرع صاحبه ، وعدم تهيُّبه من ارتفاع مـعنوية ذلك الرومي بسبب ماأحرز من نصر . ثم إن عظمة هذا البطل المقدام تبـدو في سرعة استحضـاره لعظمة الله تعالى في ذلك الموقف ، وماسـيُقدم عليـه هو وغيره مـن العرض على الله تعالى والوقـوف بين يديه للحساب ، وإن هذا الذكـر القلبي واللساني يعطي المجاهد أقوى دفـعة من الطاقة والثبـات وتجاوز الأهوال، وبهذه المعنوية العالية التي اكتسبـها من ذكر الله تعالى استطاع أن يقضي على مبارزه العنيف في أسرع وقت .

* * *

فتح مدينة « بدروق » :

ذكر ابن أعثم أن المسلمين قضوا فصل الشتاء في مدينة «المسيحية» ثم زحفوا منها إلى « بدروق » فلما علم بذلك أميرها « لبوس» استنجد بملك الروم فأمده بخمسين ألفا إضافة إلى جيشه البالغ ثلاثين ألفا .

ولما دنا منهم المسلمون كبَّروا ثلاث تكبيرات فامتلأت قلوب الكفار رعبًا وخوفا ، وتقدم قائدهم « لبوس» أمام جيشه ، فنظر إليه البطال ابن عمرو وقد انبرى من بين أصحابه ، فاستأذن مسلمة بن عبد الملك في الخروج إليه فقال له مسلمة : أذنت لك ولكن انظر أين تضع رمحك، فقال البطال بن عمرو : كُفيتَ أيها الأمير ، ليس مثلي يحتاج إلى الوصية في مثل هذا الوقت .

ثم جعل البطال بن عمرو يرتجز ويقول:

قل للأمير ذي الصِّيال مسلمة وابن الكرام السادة المكرَّمة

ومُقعصي الأبطال يوم الملحمة إني أنا البطال جدي علقمة

كم ساعدٍ وبيضةٍ وجمجمة طرحتها عند هياج الغمغمة

وأسْمَرَ رويَّته من غلصمة وأنت محمود بكل مكرمة

ثم رفع رأسه وخرج من الصف ، فجال جولة ثم حمل على قلب الروم ، وأمكنته الفرصة من « لبوس» فحمل عليه فضربه بسيفه ضربة فلق تاجه وهامته فخر قتيلا ، وانهزم الروم بغير قتال، فلحقهم المسلمون وقتلوا منهم عددا كبيرا ، وفرَّ الباقون على وجوههم

لايعرِّجون على شيء حتى لحقوا ببحر القسطنطينية واقتحم المسلمون مدينة بدروق فاحتووا غنائمها وكانت كثيرة .

ثم انشأ البطال بن عمرو يقول :

لقد علم الروم الأراجس أننا قتلنا لدى الهيجاء منها رئيسها
تركنا لبوسا في القتام مجدَّلاً فَقَبَّح ربي ذو الجلال لبوسها
ونحن أبَدْنا في العجاج كُماتَهم ونحن هزمنا جيشها وخميسها
ونحن إذاماالحرب شبت وأرهجت نخوض لظاها عنوة ووطيسها
ونحن قسمنا فيئها ونساءها ببدروق لما أن أثرنا شريسها
وكان لبوسٌ كهفها وعمادها وكان لعمري ليثها وهموسها
وكانت له الأبطال تسطو لأنه إذا ناب أمر لم تجده حَسيسَها
وسوف نُكِرُّ الخيل فينا شوازبا عَنَا جِيجَ تبدي في الغبار جَسيسَها
نريد بها «أليون» كيما نثيره ونشفي لدى الحرب العوان نفوسها(١)

وهكذا عمل البطال كما كان خالد بن الوليد رضي الله عنه يصنع حينما كان يختطف قادة الأعداء فتنهزم جيوشهم في الحال، فكم أنجبت الأمة الإسلامية من أبطال عظماء كفوا جيوشهم كثيراً من المواجهات القتالية وأحرزوا النصر العظيم لأمتهم .

(١) الفتوح لابن أعثم بتصرف ٧/ ١٤١ - ١٤٣ .

- جهاد الروم في عهد سليمان بن عبد الملك -

محاصرة القسطنطينية :

أخرج الإمام أحمد بن حنبل من حديث بشر بن سحيم رضي الله عنه : أنه سمع النبي ﷺ يقـول : لتفتحنَّ القسطنطينيـة فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش .

قال : فـدعاني مـسلمة بـن عبد المـلك فسـألني فحـدثته فـغزا القسطنطينية(١) .

وقد ذكر الحافظ الذهبي خبر حصـار القسطنطينية من رواية سعيد ابن عبد العزيز قال: أخبـرني من أدرك ذلك أن سليمان بن عبد الملك همّ بالإقامـة ببيت المقدس، وجـمع الناس والأموال بها، وقـدم عليه موسى بن نصير من المغرب، ومسلمـة بن عبد الملك ، فبينما هو على ذلك إذ جـاءه الخبـرُ أن الروم خرجت علـى ساحل حـمص فسـبَتْ جماعـةً فيهم امرأة لهـا ذِكْر، فغضب وقال: مـاهو إلا هذا، نغزوهم ويغزونا، والله لأغزونَّهم غَـزوة أفتح فيها القـسطنطينية أو أموت دون ذلك. ثم التفت إلى مـسلمة وموسى بن نصـير فقال: أشـيروا عليّ. فقال موسى : ياأمير المؤمنين ، إن أردت ذلك فسر سيرة المسلمين فيما فتحوه من الشام ومصر إلى إفـريقية، ومن العراق إلى خراسان، كلّما فتـحوا مدينة اتخذوها داراً وحـازوها للإسلام، فابدأ بالدُّرُوب فـافتح مافيـها من الحصون والمطاميـر والمَسالح ، حتى تبلغ القسطـنطينية وقد هُدِّمت حصونها وأوهيتْ قوتها،فإنهم سيعطون بأيديهم . فالتفت إلى

(١) مسند أحمد ٤/ ٣٣٥ .

مسلمة فقال : ماتقول؟ قال: هذا الرأي إن طال عُمرٌ إليه أو كان الذي يأتي على رأيك ولاينقضه رأيتُ أن تعمل منه ماعملت ولايأتي على ماقال خمس عشرة سنة ، ولكنّي أرى أن تُغْزِيَ جماعةً من المسلمين في البرّ والبحر القُسطنطينية فيحاصرونها ، فإنَّهم مادام عليهم البلاء أعطوا الجزية أو فتحوها عَنْوة ، ومتى مايكون ذلك فإنّ مادونها من الحصون بيدك . فقال سليمان : هذا الرأي . فأغزى جماعة أهل الشام والجزيرة في البرّ في نحو عشرين ومائة ألف، وأغزى أهل مصر وإفريقية في البحر في ألف مركب، عليهم عمر بن هُبيرة الفَزَاريّ، وعلى الكُل مسلمة بن عبد الملك .

قال الوليد بن مسلم : فأخبرني غيرُ واحد أن سليمان أخرج لهم الأعطية ، وأعلمهم أنّه عزم على غزو القسطنطينية والإقامة عليها : فاقدروا لذلك قدْره، ثم قدم دمشق فصلّى بنا الجمعة، ثم عاد إلى المنبر فكلم الناس ، وأخبرهم بيمينه التي حلف عليها من حصار القسطنطينية : فانفروا على بركة الله تعالى ، وعليكم بتقوى الله ثم الصبر، وسار حتى نزل دابقًا ، فاجتمع إليه الناس، ورحل مسلمة.

قال الذهبي : وأما مسلمة فسار بالجيوش ، وأخذ معه إليون الرومي المرعشي ليدله على الطريق والعوار، وأخذ عهوده ومواثيقه على المناصحة والوفاء ، إلى أن عبروا الخليج وحاصروا القسطنطينية، إلى أن برَّح بهم الحصار ، وعرض أهلها الفدية على مسلمة ، فأبى أن يفتحها إلا عنوة ، قالوا : فابعث إلينا إليون فإنّه رجل منا ويفهم كلامنا مشافهةً ، فبعثه إليهم، فسألوه عن وجه الحيلة، فقال : إن

ملّكتموني عليكم لم أفتحها لمسلمة، فملّكوه ، فخرج وقال لمسلمة: قد أجابوني أنهم يفتحونها ، غير أنهم لايفتحونها مالم تُنَحٍّ عنهم، قال: أخشى غدرَك، فحلف له أن يدفع إليه كلَّ مافيها من ذهب وفضّة وديباج وسبْي، وانتقل عنها مسلمة، فدخل إليون فلبس التاج، وقعد على السرير، وأمر بنقل الطعام والعُلوفات من خارج، فملأوا الأهراء[1] وشحنوا المطامير، وبلغ الخبر مسلمة ،فكرّ راجعًا ، فأدرك شيئًا من الطعام، فغلّقوا الأبواب دونه، وبعث إلى إليون يناشده وفاءَ العهد، فأرسل إليه إليون يقول : مُلك الروم لايبايع بالوفاء، ونزل مسلمة بفنائهم ثلاثين شهرًا ، حتى أكل الناس في العسكر الميتةَ ، وقُتل خلق ، ثم ترحل [2].

هذا وقد تبين لنا من هذه الأخبار أن أمير المؤمنين سليمان بن عبدالملك قد فزع من وصول الروم في غزوهم إلى وسط الشام، فاستشار القائدين الكبيرين موسى بن نصير ومسلمة بن عبد الملك في غزو الروم وفتح القسطنطينية، فكان رأي موسى بن نصير عدم التوجه إلى القسطنطينية أوّلاً ، وإنما تفتح بلاد الروم شيئا فشيئا فكلما فتح المسلمون مدينة نزل بها طائفة منهم واتخذوها دارًا ، فإذا بلغ المسلمون عاصمة ملك الروم كانوا قد ضعفوا فيسهل فتحها، وقد وافقه مسلمة على أن هذا هو الرأي ، لكنه أبان بأن هذا الغزو سيستمر خمس عشرة سنة وأن نجاحه لايتم إلا إذا طال عمر أمير المؤمنين حتى ذلك

(١) جمع هُري وهو بيت كبير يجمع فيه الطعام .

(٢) تاريخ الإسلام / حوادث ٨١-١٠٠ص ٢٦٩ - ٢٧١ ، وانظر تاريخ الطبري٦/ ٥٣٠ والكامل لابن الأثير ٤/ ١٤٦ .

التاريخ أو كان من يأتي بعده على هذا الرأي، ولما كان يعلم أن ذلك لن يتم لحرص سليمان بن عبد الملك على الإسراع في فتح القسطنطينية فإنه قد أشار برأي آخر وهو غزو تلك المدينة بجيش مكثف من البر و البحر ، وقد وافق سليمان على هذا الرأي بالرغم من كونه مخالفا لآراء أهل الخبرة الحربية .

ولقد كان الرأي الذي أدلى به موسى بن نصير هو العمل الذي قام به الصحابة رضي الله عنهم في كل فتوحاتهم ، فلذلك نجحوا في القضاء على المدائن عاصمة الفرس، وبدؤوا طريقهم للقضاء على القسطنطينية عاصمة الروم بفتح الشام كله وتحويله إلى بلاد إسلامية.

ولقد بذل المسلمون جهودا عظيمة في هذه الغزوة حتى بلغوا القسطنطينية وأثخنوا في الروم وكادوا أن يفتحوا عاصمة بلادهم لولا نفاد المؤن التي كانت معهم كما جاء في هذا الخبر، ولو أنهم وصلوا إلى تلك المدينة بعدما فتحوا ماقبلها من بلاد الروم وحولوها إلى بلاد إسلامية لكان أمر تموين الجيش بالغذاء سهلا ميسوراً .

وفي هذا الخبر عبرة عظيمة في خطر وضع الثقة بالأعداء وإن عاشوا فترة طويلة مع المسلمين ، لأنهم لن يعاملوا قومهم بالخيانة ويعاملوا المسلمين بالوفاء ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وإنما قد يستكينون للمسلمين ويداهنونهم ماداموا تحت قبضتهم، فإذا ملكوا أمرهم بدت عداوتهم في أعنف صورها .

وفي هذا الحصار يقول الحافظ ابن كثير : وقد لقي مسلمة في حصاره القسطنطينية شدة عظيمة، وجاع المسلمون عندها جوعا

شديدًا، فـلما ولي عمـر بن عبـد العزيز أرسل إليـهم البريد يـأمرهم بالرجوع إلى الـشام ، فحلف مـسلمة أن لايقلع عنهم حـتى يبنوا له جامعا كبيرًا بالقسطنطينيـة ، فبنوا له جامعا ومنارة ، فهو بها إلى الآن يصلي فيه المسلمون الجمعة والجماعة .

قال : وبالجـملة كانت لمسلمة مواقف مـشهورة ومسـاع مشكورة وغزوات متتاليـة منثورة ، وقد افتتح حصونا وقلاعـا ، وأحيى بعزمه قصورا وبقاعا ، وكان في زمانه في الغزوات نظير خالد بن الوليد في أيامه في كثـرة مغازيه وكثرة فـتوحه وقوة عزمه وشـدة بأسه، وجودة تصرفه في نقضه وإبرامه (١) .

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٣٤١ - ٣٤٢ .

- جهاد الروم في عهد هشام بن عبد الملك -

مازال المسلمون في جهاد مع الروم ، ومن أبرز معاركهم معهم ماجرى في عهد أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك في سنة اثنتين وعشرين ومائة حيث بعث جيشًا بقيادة ابنه سليمان بن هشام وكان أمير العساكر المرابطين هناك مالك بن شبيب وكان معه بطل المسلمين في ذلك الزمن عبد الله البطال ، فجاء الخبر إلى البطال بأن ملك الروم « إليون » قد خرج من القسطنطينية في مائة ألف فارس، فأخبر بذلك مالك بن شبيب وقال له : المصلحة تقتضي أن نتحصن في مدينة حران فنكون بها حتى يقدم علينا سليمان بن هشام في الجيوش الإسلامية ، فأبى عليه ذلك ، ودهمهم الجيش ،فاقتتلوا قتالا شديدًا، والأبطال تحوم بين يدي البطال ولايتجاسر أحد أن ينوِّه باسمه خوفا عليه من الروم فاتفق أن ناداه بعضهم وذكر اسمه غلطا منه ، فلما سمع ذلك فرسان الروم حملوا عليه حملة واحدة فاقتلعوه من سرجه برماحهم فألقوه إلى الأرض، ورأى الناس يَقْتُلون ويأسرون وقُتل الأمير الكبير مالك بن شبيب، وانكسر المسلمون وانطلقوا إلى تلك المدينة الخراب فتحصنوا فيها .

وأصبح إليون فوقف على مكان المعركة فإذا البطال بآخر رمق فقال له : ماهذا ياأبا يحيى ؟ فقال: هكذا تُقتَل الأبطال ، فاستدعى إليون بالأطباء ليداووه فإذا جراحه قد وصلت إلى مقاتله ، فقال له إليون: هل من حاجة يا أبا يحيى ؟ قال : نعم ، تأمر مَن معك من

المسلمين أن يَلُوا غسلي والصلاة علي ودفني ، ففعل الملك ذلك ، وأطلق لأجل ذلك أولئك الأسارى [1] .

وهكذا ختم الله تعالى حياة هذا البطل بالشهادة التي كان يدعو الله جل وعلا بالتوفيق إليها بعدما أثخن في الأعداء ودوخهم وأرعبهم عقوداً من الزمن، فماأعظم تلك الحياة الحافلة بالجهاد ومواجهة الأهوال والمخاطر ! وماأسمى تلك النهاية التي ختمت بها تلك الحياة!!

وقد كان ملك الروم « إليون » يعرفه جيدا لأن « إليون » كان مع المسلمين ، وخرج معهم إلى حصار القسطنطينية ، ثم خدعهم كما سبق، وملَّكه الروم عليهم، والظاهر أن حرصه على علاج البطال وبقائه حيا من أجل أن يأخذه أسيرا فيساوم به قادة المسلمين لكون البطال من عظماء المسلمين وأبطالهم .

وقد كانت لهذا البطل مواقف جهادية عالية مرت علينا في عرض مواقف المعارك الماضية ، وكان له - بعد الله تعالى - فضل في انتصار المسلمين أكثر من مرة .

وبالرغم من شهرته وقوة أثره في حروب أهل الشام فإن المصادر التاريخية قد اختلفت في اسمه واسم أبيه وكنيته ، فبينما نجد في كتاب الفتوح لابن أعثم أن اسمه البطال بن عمرو ، نجد الحافظ ابن كثير يذكر اسمه عبد الله البطال ويذكر كنيته مرة أبا محمد ومرة أبا يحيى[2] واتفق معه ابن الأثير في تسميته عبد الله البطال ولكنه ذكر أن

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٣٤٥.

(٢) البداية والنهاية ٩/ ٣١٧ ، ٣٤٥ .

كنيته أبو الحسين ، واتفقا على نسبته إلى أنطاكيه لأنه كان قد نزلها (١) وذكره الإمام ابن تيميـة في مناسبة بيان من نُسجت حـولهم الأساطير لشهـرتهم بالشجاعـة وذكر اسمه عـبد الله البطال وذكر أن كنيـته أبو محمد(٢) .

ولعل له ابنا اسمه يحـيى وآخر اسمه محمد وثالثًـا اسمه الحسين فمرة يكنى بيحـيى ومرة بمحمد ومرة بالحسين ، ولكنه قـد اشتهر في الحروب باسم البطال سواء عند المسلمين أو عند الروم .

أما جيش المسلمين فإن بعضهم قتلوا وبعضهم أسروا ولجأ بعضهم إلى المدينة التي حولهم فـتحصنوا فـيها ، وقد انطلق إليـهم « إليون» بجيشه فحاصرهم، فبينما هم في تلك الشدة والحصار إذ جاءتهم البُرُد بقدوم سليمان بن هشام في الجيوش الإسلامية، ففرَّ إليون بجيشه إلى القسطنطينية فتحصن بها (٣) .

* * *

---

(١) الكامل ٤/٢٤٨ .

(٢) فتاوى ابن تيمية ١٨/ ٣٥٢ .

(٣) البداية والنهاية ٩/ ٣٤٧ .

الجهاد مع الروم

فى

عهد العباسيين

حـينما قـامت دولة بني العـباس عـام اثنين وثلاثين ومائة شُـغِل خلفاؤها بالحروب الداخليـة ، ولم تستقر إلا في أواخر عـهد المنصور الخليـفة الثاني ، فـلم يكن هناك جهـاد إلا في عهـد الخليفة الـثالث المهدي، حيث بدأ الجهاد مع الروم .

ثم استمر الجهاد بعد ذلك مع الأعداء بنسبة قليلة متباعدة، وأغلبه جهاد الدفاع عن دار الإسلام .

وقد كان الجهاد في العهد العـباسي موجها ضد ست من الأمم : الروم ، وأهل المشرق وأهل الهند ، والصليبـيين ، والتتار ، ونصارى الأندلس .

وكـان الجهـاد في العـصر العـباسي الأول مـوجـها من الخلفـاء أنفـسهم، وذلك إلى نهـاية عهـد المعتـصم ، ثم أصبح مـوجهـا من الدويلات التي اسـتقلت بشـئون حكـمهـا مع بقاء تبـعيـتهـا للدولة العباسية. وإن كان بعضهـا قد استقلت تماما كالدولة الأموية بالأندلس وماتلاها من دويلات .

علمـا بأن الدولة العبـاسيـة قد انتـهت من بغداد فـي عام سـتة وخمسين وستمائة عندما اجتاحـها التتار، ولكنها عادت في عام ثمانية وخمسين في مصر حينما بايع الظاهر بيبرس أحد بني العباس بالخلافة كما سيـأتي ، غير أنها ظلت خلافة بالاسم وكـان الحكم بيد المماليك إلى أن قضى العثمانيون على المماليك فانتهى وجود الخلافة العباسية .

ومازال القتال دائراً بين دولة الإسلام ودولة الروم منذ عهد الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، إلى أن زالت بلاد الشـام ومصر عن الروم في عهد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، ثم زال شمال أفريقية عنهم في عهد أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه وفي عهد بني أمية، ودخلت كل هذه البلاد في دولة الإسـلام ، ولكن الحروب ظلت بين الروم والمسلمين من جهة بلاد الشام ، وكـان إنشاء هذه الحروب غالبا من المسلمين ، ولكن دولة الروم كلما آنست من دولة الإسـلام ضعفا أغارت جيوشها على أطراف بلاد المسلمين .

١ – جهاد الروم في عهد المهدي والرشيد –

غزو القسطنطينية :

قام أمير المؤمنين هارون الرشيد بغزو بلاد الروم في عهد أبيه المهدي وبعد توليه الخلافة ، فالغزوة الأولى وجهّهه فيها أبوه الخليفة المهدي، وفي ذلك يقول الإمام الطبري : ووجهه أبوه – فيما ذُكِر يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة [١] غازيا إلى بلاد الروم ،وضم إليه الربيع مولاه ، فوغل هارون في بلاد الروم،ولِقيَتْهُ خيول « نَقيطًا » قومس القوامسة، فبارزه يزيد بن مزيد [٢]، فأرجل يزيد، ثم سقط « نقيطا » فضربه يزيد حتى أثخنه ، وانهزمت الروم، وغلب يزيد على عسكرهم .

قال : وسار هارون حتى بلغ خليج البحر الذي عليه القسطنطينية، وصاحبُ الروم يومئذ « أَغُسْطه » امرأة أليون، وذلك أن ابنها كان صغيرا قد هلك أبوه وهو في حجرها ، فجرت بينها وبين هارون بن المهدي الرسل والسفراء في طلب الصلح والموادعة وإعطاء الفدية ، فقبل ذلك منها هارون ، وشرط عليها الوفاء بما أعطت له، وأن تقيم له الأدلاء والأسواق [٣] في طريقه ، وذلك أنه دخل مدخلا صعبا مخوفًا على المسلمين ، فأجابته إلى ماسأل .

---

(١) يعني من سنة خمس وستين ومائه .

(٢) هو يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني أمير أرمينية وأذربيجان وكان من الشجعان المشهورين.

(٣) أي المشتملة على ما يحتاجه المسافرون .

قال : وكتبوا كتاب الهدنة إلى ثلاث سنين، وسُلِّمت الأسارى[1].

في هذا الخبر مواقف جهادية عالية، منها موقف يزيد بن مزيد الشيباني حينما بارز قائد الروم « نقيطا » فقتله ، وكان ذلك سببا في انهزام جيشه ، وهكذا كان جهد هذا القائد الشجاع يزيد بن مزيد مغنيا عن جهود كبيرة سيبذلها المسلمون في مقاومة الروم لو ظلوا على إقدامهم ومعنوياتهم الأولى ، ولكن حينما تحطمت معنوياتهم بقتل قائدهم سَهُل على المسلمين هزيمتهم .

ومن المواقف الجهادية العالية وصول المسلمين بقيادة هارون الرشيد إلى القسطنطينية ، وهذا يعتبر مغامرة جريئة لبعد ذلك المكان عن دار الخلافة ، وقد وصلها المسلمون قبل ذلك عدة مرات أهمها وأعظمها وصولهم إليها أول مرة في خلافة معاوية رضي الله عنه بقيادة ابنه يزيد كما تقدم .

فتح هرقلة الأول :

أما جهاد هارون الرشيد في بلاد الروم في خلافته فقد تكرَّر عدة مرات أبرزها ماذكره الإمام ابن جرير الطبري بقوله : فذُكِر أن نقفور لما ملك واستوسقت له الروم بالطاعة[2] كتب إلى الرشيد :

من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرُّخّ وأقامت نفسها مقام البيدق[3] ،

(١) تاريخ الطبري ٨/ ١٥٢ - ١٥٣ باختصار .

(٢) أي ثبتت طاعة الروم له .

(٣) هذا تعبير عن ظهورها أمام الرشيد بمظهر الضعف .

فحملت إليك من أموالها ماكنت حقيقا بحمل أمثالها إليها، لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فاردد ماحصل قِبَلَك من أموالها، وافْتَدِ نفسك بما يقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك.

قال: فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى لم يمكن أحداً أن ينظر إليه دون أن يخاطبه، فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يابن الكافرة، والجواب ماتراه دون أن تسمعه، والسلام.

ثم شَخَص من يومه وسار حتى أناخ بباب «هرقلة» ففتح وغنم، واصطفى وأفاد، وخَرَّب وحرَّق واصْطَلَم[1]، فطلب نقفور الموادعة على خراج يؤديه في كل سنة فأجابه إلى ذلك، فلما رجع من غزوته وصار بالرَّقَّة نقض نقفور العهد وخان الميثاق، وكان البرد شديداً فيئس نقفور من رجعته إليه، وجاء الخبر بارتداده عما أخذ عليه، فما تهيأ لأحد إخباره بذلك إشفاقًا عليه وعلى أنفسهم من الكَرَّة في مثل تلك الأيام.

وذكر أنهم احتالوا عليه بإنشاد الشعر المتضمن ذلك، ومنه قول الحجاج بن يوسف التيمي:

نقضَ الذي أعطيته نقفور ... وعليه دائرة البوار تدور
أبشر أميرَ المؤمنين فإنه ... غُنْمٌ أتاك به الإله كبير
فلقد تباشرت الرعيه أن أتى ... بالنقض عنهُ وافد وبشير

---

(١) اي استأصل.

ورجَتْ يمينك أن تعجِّل غزوة تشفى النفوس مكانُها مذكور
نقفور إنك حين تغدر إن نأى عنك الإمام لَجَاهل مغرور
أظننت حين غدرت أنك مُفْلت هبلَتْك أمك ماظننت غُرور

ثم ذكر أن هارون الرشيد لما سمع هذا الشعر قال : أَوَقَدْ فعل نقفور ذلك ! وعلم أن الوزراء قد احتالوا له في ذلك، فكرَّ راجعًا في أشد محنة وأغلظ كلفة حتى أناخ بفنائه ، فلم يبرح حتى رضي وبلغ ماأراد [1] .

ففي هذا الخبر مواقف عالية لأمير المؤمنين هارون الرشيد رحمه الله تعالى، حيث أظهر عزة الإسلام ودولته لما استهان بذلك ملك الروم ، فكان جوابه بالفعل لا بالقول حيث غزاه بذلك الجيش العظيم الذي خلع فؤاد ذلك الملك فعاد ذليلا يطلب ود هارون الرشيد والصلح معه .

وحينما نقض ذلك الملك الصلح وخان العهد لاستبعاده أن يعود إليه المسلمون في الشتاء ، وعلم بذلك الرشيد فعاد إليه بجيشه رغم قسوة البرد وشدة المؤونة ، حتى لقَّنه درسًا لا ينساه وأخضعه لما يريد.

ولقد كان غزو الروم في الشتاء مشقةً كبيرة ومخاطرة عظيمة على المسلمين ، ولكن هارون الرشيد أراد أن يَعلَم الروم أن باستطاعة المسلمين أن يصلوا إليهم في أي فصل من الفصول، وأن غزوهم بلادهم في الصيف إنما كان باختيارهم لكونه أيسر لهم .

* * *

(١) تاريخ الطبري ٨/٣٠٧ - ٣١ باختصار .

فتح هرقلة الثاني وماحولها :

ذكر ذلك الإمام محمد بن جرير الطبري في حوادي سنة تسعين ومائة، فقال: وفيها فتح الرشيد هرقلة، وبثّ الجيوش والسرايا بأرض الروم، وكان دَخَلها - فيما قيل - في مائة ألف وخمسة وثلاثين ألف مرتزق، سوى الأتباع وسوى المطوّعة وسوى من لاديوان له، وأناخ عبد الله بن مالك على ذي الكلاع ووجّه داود بن عيسى بن موسى سائحًا في أرض الروم في سبعين ألفًا ، وافتتح شراحيل بن معن بن زائدة حصن الصقالبة ودَبْسة ، وافتتح يزيد بن مخلد الصَّفْصاف وملَقوبية - وكان فتح الرشيد هرقلة في شوال - وأخربها وسبى أهلها بعد مقام ثلاثين يومًا عليها ، وولّى حُمَيد بن معيوف سواحل بحر الشام إلى مصر، فبلغ حُميد قبرص، فهدم وحرق وسبى من أهلها ستة عشر ألفًا ، فأقدمهم الرّافقة ، فتولّى بيعهم أبو البختري القاضي، فبلغ أسقف قبرص ألفي دينار .

وكان شخوص هارون إلى بلاد الروم لعشر بقين من رجب، واتخذ قلنسوة مكتوبًا عليها « غازٍ حاجٌّ » ، فكان يلبسها، فقال أبو المعالي الكلابيّ :

فَمنْ يَطْلُبْ لقاءَكَ أو يُردْهُ   فَبالحَرَمْين أو أقصى الثغور
ففي أرْض العدُوِّ على طِمِرٍّ   وفي أرض التَّرفّهِ فَوقَ كُورِ
وماحازَ الثغورَ سواكَ خَلْقٌ   من المُتخلَّفينَ على الأمورِ

ثم صار الرشيد إلى الطوانة ، فعسكر بها، ثم رحل عنها، وخلَّف عليها عقبة بن جعفر، وأمره ببناء منزل هنالك، وبعث نقفور

إلى الرشيد بالخراج والجزية، عن رأسه وولي عهده وبطارقته وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار، منها عن رأسه أربعة دنانير ، وعن رأس ابنه استبراق دينارين. وكتب نقفور مع بطريقين من عظماء بطارقته في جارية من سبي هرقلة كتابًا نسخته :

لعبد الله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم . سلام عليكم ، أما بعد أيها الملك ، فإنّ لي إليك حاجة لاتضرّك في دينك ولادنياك ، هينة يسيرة، أن تهب لابني جارية من بنات أهل هرقلة، كنت قد خطبتُها على ابني، فإن رأيت أن تسعفني بحاجتي فعلت. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

واستهداه أيضا طيبًا وسرادقا من سُرادقاته، فأمر الرشيد بطلب الجارية، فأحضرت وزيِّنت وأجلست على سرير في مضربه الذي كان نازلاً فيه، وسلِّمت الجارية والمضرب بما فيه من الآنية والمتاع إلى رسول نقفور ، وبعث إليه بما سأل من العطر، وبعث إليه من التمور والأخبصة والزّبيب والترياق، فسلَّم ذلك كله إلى رسول الرشيد، فأعطاه نقفور وقْر دراهم إسلامية على برذون كُميت كان مبلغه خمسين ألف درهم، ومائة ثوب ديباج ومائتي ثوب بُزْيون[١]، واثني عشر بازيًا، وأربعة أكلب من كلاب الصيد، وثلاثة براذين. وكان نقفور اشترط ألاّ يخرب ذا الكلاع ولاصمله ولاحصن سنان، واشترط الرشيد عليه ألا يعمر هرقلة، وعلى أن يحمل نقفور ثلثمائة ألف دينار[٢].

(١) البزيون : ضرب من نسيج البز أو من رقيق الديباج، مركب من : «بز» ومن: «يون»، أي يشبه البز. وانظر الألفاظ الفارسية لأدي شير ٢٢ - هامش تاريخ الطبري- .

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٣٢٠ - ٣٢٢ .

في هذا الخبر مـثل من عزة المسلمين وقوة دولة الإسـلام في عهد أمـير المـؤمنين هارون الرشـيد، حـيث كـان ملك الروم يدفع الجـزية والخراج لدولة الإسلام وهو صاغر، ويتذلل له بالكتاب الذي بعثه إليه ليـهبـه امـرأة من السـبي، وإنما علا شـأن المسلمين وقـويت دولتـهم لمحافظتهم على الجهـاد في سبيل الله تعالى ، فقد كـان الرشيد يغزو سنة ويحج أخـرى ، وإذا كـان هذا هو الغـزو الذي يقوم به بـنفسـه فكيف بالبعوث التي يبعثها مع قادته ؟!

٢ - جهاد الروم في عهد المعتصم -

كان سبب ذلك أن ملك الروم « تَوْفيل بن ميخائيل » لما بلغه أن جيوش المسلمين ذهبت إلى أذربيجان وماحولها لغزو « بابك الخُرَّمِي» غزا بجيشه أطراف دولة الإسلام فهجم على « زبطرة » وقتل رجالها وسبى الذراري والنساء ثم أحرقها .

وخرج أهل ثغور الشام والجزيرة وأهل الجزيرة إلا من لم يكن عنده دابة ولا سلاح .

فلما انتهى الخبر إلى المعتصم صاح في قصره : النفير ، ثم ركب دابته وأخذ استعداد الحرب ، ولمَّا لم يتهيأ له الخروج في ذلك اليوم حتى تتم تعبئة الجيش جلس في دار العامة ، ووجه عُجَيف بن عنبسة وعمرًا الفرغاني ومحمد كوته وجماعةً من القواد إلى « زبطرة» إعانة لأهلها ، فوجدوا ملك الروم قد انصرف إلى بلاده، فوقفوا قليلا حتى تراجع الناس إلى قراهم واطمأنوا .

وبلغ المعتصم أن امرأة هاشمية صاحت وهي أسيرة في أيدي الروم: وامعتصماه ، فأجابها وهو جالس على سريره : لبيك لبيك، وأمر بتجهيز جيش كبير لغزو الروم ، وسأل : أيُّ بلاد الروم أمنع وأحصن ؟ فقيل : عَمُّورية ، لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الإسلام ، وهي عين النصرانية وبُنْكُها (١) وهي أشرف عندهم من القسطنطينية (٢) .

---

(١) البنك بضم الباء أصل الشيء وخالصه .

(٢) تاريخ الطبري ٩/٥٦ - ٥٧ ، الكامل لابن الأثير ٥/٢٤٧ ، تاريخ ابن خلدون٣/ ٢٦٢ .

وذكر الإمام الطبري أن أمير المؤمنين المعتصم جهز جيشًا لم يتهيأ لخليفة قبله مثله من اكتمال السلاح والعُدد .

قال : ولما دخل بلاد الروم أقام على نهر اللَّمِس وهو على سلوقية قريبا من البحر بينه وبين طرسوس مسيرة يوم، وعليه يكون الفداء إذا فُودي بين المسلمين والروم .

وقد قسم المعتصم جيشه ثلاثة أقسام : قسمًا بقيادة الأفشين، وقسمًا بقيادة أشناس وقسمًا قاده بنفسه ، وقد أمر الأفشينَ بالتقدم ثم أمر أشِناسَ بالسير بعده ، ثم تبعهم ببقية الجيش ، وقد جعل الموعد بينهم مدينة « أنقرة » .

أما ملك الروم فإنه بلغه خبر خروج الجيش الإسلامي فأقبل بجيشه يريد مواجهة جيش المسلمين ، فلما كان قريبا من أوَّلهم علم بأن جيشا للمسلمين كبيرًا قد جار من طريق آخر وهو جيش الأفشين، فأخذ ملك الروم بعض جيشه لمواجهة جيش الأفشين وأبقى بعض الجيش بقيادة أحد أقاربه ليلاقي طليعة جيش المسلمين القادم من ذلك الطريق .

وقد التقى ملك الروم بجيش الأفشين فانهزم مشاة الجيش الإسلامي وقُتِل منهم كثير ولكن فرسان المسلمين كرُّوا على جيش الروم فهزموه وشتتوه ، وانحاز ملك الروم مع قلة من جنده حتى استطاع الوصول إلى مقر جيشه فإذا بهم قد اختلفوا على قائده وتفرقوا عنه فَقَتَل ذلك القائد ، ورجع نحو القسطنطينية ليجمع فلول جيشه .

وقد علم أشناس بذلك بواسطة بعض الأسرى الذين أسرهم

فأرسل إلى المعتصم يخبره ففرح بذلك ، والْتَقَتْ جيوش المسلمين حول أنقرة ، وكان أهل هذا البلد قد أخلَوْه وهربوا (١) .

وبعد ففي هذا الخبر مواقف ، منها موقف العزة والشهامة والشجاعة من أمير المؤمنين المعتصم حينما دعا بالنفير إلى الجهاد لما بلغه مصاب المسلمين على يد الروم ، ولقد بلغ به الحماس للجهاد والانتصار للمسلمين إلى حد أنه ركب دابته وأخذ سلاحه حال سماعه الخبر .

ومن ألطف مواقفه وأروعها إجابته نداء تلك المرأة المسلمة الأسيرة التي نادته باسمه ليخلصها من أسر الروم، وفي بيان هذه النخوة والشهامة يقول الشاعر عمر أبو ريشة رحمه الله تعالى :

رُبَّ وامعتصماه انطلقت ... مِلءَ أفواه الصَّبايا اليُتَّم
لامست أسماعهم لكنها ... لم تلامس نخوة المعتصم

ومما يذكر للمعتصم أنه أسرع في تجهيز جيش لنجدة المسلمين المنكوبين وصد الأعداء عنهم ، ثم بدأ في إعداد جيش كثيف لتأديب الأعداء والانتقام منهم .

وإن نهوض المعتصم بذلك الجيش يعتبر إظهاراً لعزة الإسلام وقوة دولته ، وردعًا قويا لأعداء الإسلام حتى لايتجرؤوا مرة أخرى على الإغارة على أطراف بلاد المسلمين .

ومن المواقف المذكورة في هذا الخبر موقف المسلمين من أبناء

---

(١) تاريخ الطبري ٩/ ٥٧ - ٦٢ .

المناطق المجاورة لمدينة « زبطره » حيث هَبَّ جميع الذين يملكون الأسلحة والدواب لنجدة إخوانهم الذين داهمهم العدو ، وهذا فَهْم منهم لفرضية الجهاد وتَعَيُّنه على من داهمهم العدو ومن حولهم ممن تقوم بهم الكفاية ، وقد استطاعوا دحر العدو ووقف تقدمه نحو بلاد الإسلام حتى اضطر إلى التراجع إلى بلاده ، وهذا دليل على ارتفاع مستوى الإيمان لدى المسلمين آنذاك ، حيث لم يعتبر أهل كل بلد مصالح بلدهم خاصة ، وإنما اعتبروا العُدْوان على بلد إسلامي عدوانا عليهم جميعًا ، وبهذا الشعور الحي العام يشعر الأعداء أن كل بلد إسلامي موصول بالبلدان الإسلامية الأخرى وأنه ليس بإمكان العدو التوغل في بلاد الإسلام اعتماداً على بُعد عاصمته وجيشه .

ومن المواقف الرائعة في هذا الخبر مقدرة فرسان المسلمين الفائقة في جزء من الجيش الإسلامي على هزيمة معظم جيش الروم، الذي كان بقيادة ملكهم ، وهذا يُلقِّنهم درسا بليغا ، لأنه لو حصل اللقاء مع جيش المسلمين الكامل فإن النتيجة ستكون إبادة جيش الروم، ولهذا لم يفكر ملك الروم بالعودة لفك الحصار عن « عمورية » التي تعتبر من أعظم مدنهم .

فتح مدينة عمورية :

أما فتح « عَمُّورية » من بلاد الروم ، فقد ذكر الإمام ابن جرير الطبري أن المسلمين وصلوا إليها وحاصروها ، وكان لها سور حصين وراءه نفق ، فتحصن أهلها داخلها قال : وكان رجل من المسلمين قد أسره أهل عمورية فتنصَّر وتزوج فيهم فحبس نفسه عند دخولهم

الحصن[1] فلما رأى أميرَ المؤمنين ظهر وصار إلى المسلمين ، وجاء إلى المعتصم وأعلمه أن موضعًا من المدينة حمل الوادي عليه من مطر جاءهم شديد ، فحمل الماء عليه فوقع السور من ذلك الموضع فكتب ملك الروم إلى عامل عمورية أن يبني ذلك الموضع فتوانَى في بنائه حتى كان خروج الملك من القسطنطينية إلى بعض المواضع، فتخوف الوالي أن يمر الملك على تلك الناحية فيمر بالسور فلايراه بُني، فوجَّه خلف الصُنَّاع فبنى وجه السور بالحجارة حجرا حجرا ، وصيَّر وراءه من جانب المدينة حشوا ، ثم عقد فوقه الشُّرَف كما كان، فوقَّف ذلك الرجل المعتصم على هذه الناحية التي وصف ، فأمر المعتصم فضرب مضربه في ذلك الموضع ، ونصب المجانيق على ذلك البناء ، فانفرج السور من ذلك الموضع ، فلما رأى أهل عمورية انفراج السور علَّقوا عليه الخشب الكبار كل واحدة بلزق الأخرى ، فكان حجر المنجنيق إذا وقع على الخشب تكسر فعلقوا خشبا غيره وصيَّروا فوق الخشب البراذع ليترِّسوا السور .

فلما ألحَّت المجانيق على ذلك الموضع انصدع السور فكتب ياطس والخصي [2] إلى ملك الروم كتابا يعلمانه أمر السور ، ووجها الكتاب مع رجل فصيح بالعربية وغلام عربي وأخرجاهما من الفصيل، فعبرا الخندق ووقعا إلى ناحية أبناء الملوك المضمومين إلى عمرو الفرغاني، فلما خرجا من الخندق أنكروهما فسألوهما : من أين أنتما ؟ قالا

(١) يعني لم يتصرف عند دخول فلول المنهزمين من الروم إلى عمورية والتحصن بها .

(٢) هما من قادة الروم وكانا دخلا عمورية بعد المعركة التي انهزم فيها الروم .

لهم: نحن من أصحابكم، قالوا : من أصحاب من أنتم ؟ فلم يعرفا أحدًا من قواد أهل العسكر يسميانه لهم ، ، فأنكروهما وجاؤوا بهما إلى عمرو الفرغاني بن أرنجا ، فوجه بهما عمرو إلى أشناس فوجه بهما أشناس إلى المعتصم ، فساءلهما المعتصم وفتشهما فوجد معهما كتابا من ياطس إلى ملك الروم يعلمه فيه أن العسكر قد أحاط بالمدينة في جمع كثير ، وقد ضاق بهم الموضع ، وقد كان دخوله ذلك الموضع خطأً ، وأنه قد اعتزم على أن يركب ويحمل خاصة أصحابه على الدواب التي في الحصن ، ويفتح الأبواب ليلاً غفلةً ، ويخرج فيحمل على العسكر كائنا فيه ماكان ، أفلت فيه من أفلت وأصيب فيه من أصيب ، حتى يتخلص من الحصار ويصير إلى الملك .

فلما قرأ المعتصم الكتاب أمر للرجل الذي يتكلم منهما العربية والغلام الذي معه ببدرة (١) ، فأسلما وخلع عليهما، وأمر بهما حين طلعت الشمس فأداروهما حول عمورية ، فقالا : ياطس يكون في هذا البرج ، فأمر بهما فوقفا بحذاء البرج الذي فيه ياطس طويلا ، وبين أيديهما رجلان يحملان لهما الدراهم وعليهما الخُلَع ، ومعهما الكتاب، حتى فهمها ياطس وجميع الروم وشتموهما من فوق السور، ثم أمر بهما المعتصم فنحَّوهما .

وأمر المعتصم أن تكون الحراسة بينهم نوائب ، في كل ليلة يحضرها الفرسان يبيتون على دوابهم بالسلاح وهم وقوف عليها، لِئَلاَّ يُفتح الباب ليلا فيخرج من عمورية إنسان ، فلم يزل الناس يبيتون

(١) البدرة كيس توضع فيه الدنانير والدراهم .

كذلك نوائب على ظهور الدواب في السلاح ودوابهم بسروجها، حتى انهدم السـور مابين بُرجين من الموضـع الذي وُصف للمعتـصم أنه لم يُحكَم عمله . . إلى أن قال :

فلما كان من الغد قاتلهم على الثلمة ، وكان أول من بدأ بالحرب أشناس وأصحـابه ، وكان الموضع ضيـقا ، فلم يمكنهم الحرب فـيه، فأمر المعتصم بالمنجنيقات الكبار التي كـانت متفرقة حول السور فجمع بعـضهـا إلى بعض ، وصيـروها حول الثلمـة وأمـر أن يُرمى ذلك الموضع، وكـانت الحـرب في اليـوم الثاني عـلى الأفشين وأصـحـابه فأجادوا الحرب وتقدموا .

فلما كان اليـوم الثالث كانت الحرب على أصحـاب أمير المؤمنين خاصـة، ومعـهم المغاربة والأتراك ، والقـيِّم بذلك « إيتاخ » فـقاتلوا فـأحسنوا واتسع لهـم الموضع المنثلم ، فلم تزل الحـرب كذلك حـتى كثرت في الروم الجراحات .

ثم ذكر أن الحرب بالنسبة للروم اقتصرت على القائد المتاخم لتلك الثلمة وجيشه ، وأنه طلب من بقية قـادة الروم الذين اقتسموا حراسة البروج حـول المدينة أن يشـاركوا في القتـال وإلا ذهبت منهم المدينة فـأبوا وقالوا : قـد سلم السور من ناحـيـتنا وليس نسـألك أن تمـدنا فشـأنك وناحيتك،فـعزم هذا القائد وهو وأصـحابه على الاستـسلام للمسلمين.

فلما أصـبح هذا القائد وهو « ونـدو » خرج فتـفاوض مع أمـير المؤمنين على التـسليم مـقابل الأمـان على الذرية والمتاع والسـلاح ،

فـدخل المسلمـون من تلك الناحـيـة واسـتولوا علـى جمـيع مـا في عمورية[1] .

وهكذا تم فتح مدينة « عمورية » التي تعتبر من أعظم مدن الروم وأشدها تحصينا ، وكان من أسباب تعجيل الفتح ماقام به ذلك الرجل المسلم الذي تنصر ظاهرا لمَّا وقع أسيرًا في يد الروم ، وذلك حينما دل المسلمين على نقطة الضعف في سور المدينة ، وهذا موقف يذكر لهذا الرجل فإن الخروج من تلك المدينة المحصنة بغير توجيه من قادتها يعتبر أمرًا في غاية الصـعوبة والخطورة ، وقد خاطر هذا الرجـل بحياته من أجل أن يدل المسلمين على مفتاح دخول تلك المدينة المحصنة .

ومما يذكر من المواقف فـي هذا الخبر مـاكان يتمـتع به المجاهدون آنذاك من اليقظة ودقة الرصد ، حيث لم يستطع رسول الروم أن يفلت منهم مع أن الروم قد أجادوا اختياره ، حيث اختاروا رجلا يجيد اللغة العربيـة بفصاحة ، حـتى يظن المسلمون أنه واحد منهم إذا خـاطبوه، ولقد كان لهذا الـتفوق في الرصد الحربي أثره الكبيـر في سير أحداث المعركـة ،حيث جنَّب المسلمين خـطر الهجوم المبـاغت الذي خطط له الأعداء .

هذا وإننا لنجد في خبر هذه المعركة عبرًا عظيمة : منها مانتج عن تكاسل حاكم عمورية في بناء السور لما تهدم من أثر السيل، فلقد جر تكاسله هذا وبالاً عليه وعلى قومه ، وقد كانت عمورية تردُّ الغزاة من قوة ومتانـة سورها ، لكن هذا الخطأ الفادح من أميرها كان سـببًا في

---

(١) تاريخ الطبري ٩/ ٦٣ - ٦٨ باختصار .

انتصار المسلمين وهزيمة الروم ، ولقد كان هذا الوالي يفقد عاملا مهما من عوامل النجاح في الحكم وهو الحزم .

ومنها تخاذل قادة الروم عن حماية مدينتهم ، واعتبارهم كل واحد منهم أن مسئوليته منحصرة في حماية الجزء المخصص له من السور، وكانت الحكمة والسياسة الحربية أن يجتمعوا على حماية مدينتهم من ذلك السور المتهدم ، لأن دخول المدينة من جهة يعني الاستيلاء عليها جميعها .

وهذا الموقف المتخاذل الأناني يدل على تفرق قادة الروم، وعدم وجود قائد قدير يخطط لهم وينفذون أوامره .

ومنها أن تركيز المسئولية في القادة الكبار البعيدين عن ميدان المعركة له أثر كبير في الفشل والهزيمة ، فإن القائد الرومي الذي عزم على مباغتة المسلمين بالحملة عليهم ، ثم الانحياز إلى ملك الروم لم يكن قادرًا على تنفيذ تلك الخطة إلا باستئذان ملك الروم الذي بينه وبينه مسافة بعيدة ، فإلى أن يذهب الرسول - فيما لو سلم - وحتى يعود تكون المعركة قد حُسمت بينهم وبين المسلمين .

أما قادة المسلمين فإنهم قد عرفوا المبادئ العامة التي يسير عليها قادتهم عادة والأحكام والآداب الإسلامية التي يلزمهم تنفيذها، ثم هم بعد ذلك أحرار في الاجتهاد واتخاذ القرارات اللازمة بعد أخذ مشورة أهل الرأي في جيشهم ، ولذلك فإنهم قد اغتنموا فرصًا كثيرة ماكانوا ليستفيدوا منها لو كانوا يرجعون إلى أمير المؤمنين في كل أمورهم .

* * *

٣ – جهاد السلطان ألب أرسلان مع الروم

السلطان ألب أرسلان هو أحد سلاطين السلاجـقة وهو محمد بن داود جفري بك بن مـيخائيل بن سلجوق، وقد بـلغت حدود سلطته من أقاصي بلاد ماوراء النهر إلى أقـاصي الشام ، ومع ذلك كان تابعًا لخلفـاء بني العبـاس ، وكان كـريما عادلا عـاقلا ، وقـد دخل بعض الأمراء تحت سلطانه لحسن سيرته وعدله .

وقد توفي مـقتولا بيـد أحد الولاة وهو يوسف الخـوارزمي وكان السلطان أرسلان يريد قتله فعـاجله يوسف وقضى عليه وذلك في سنة خمس وستين وأربعمائه [1] .

معركة « مَلاْذْكُرْد » :

هذه معركة مشهورة حـاسمة جرت بين المسلمين بقيادة ألب أرسلان وبين الروم بقيادة أرمانوس ، وفي خبـرها يقول ابن الأثير في حوادث سنة ثلاث وسـتين وأربعـمائة : في هذه السنـة خرج أرمـانوس ملك الروم في مائتي ألف من الروم والفـرنج ، والغرب والروس والبجناك والكرج وغيرهـم من طوائف تلك البلاد ، فجاؤوا في تجمُّل كثير وزِيّ عظيم ، وقصدَ بلاد الإسلام فوصل إلى ملاذكُرد من أعمال خلاط ، فبلغ السلطان ألب أرسلان الخبر وهو بمدينة خُوَيّ من أذربيجان قَدْ عَادَ من حلب ، وسمع مافيه ملك الروم من كثرة الجموع، فلم يتمكن من جمع العساكر لبُعدها وقُرْبِ الـعدو ، فسيَّر الأثقال مع زوجته ونظام الملك إلى هَمذان، وسار هو فيمن عنده من العساكر وهم خمسةَ عشر

---

(١) الكامل لابن الأثير ٨/ ١١٣

ألف فارس ، وجدَّ في السير ، وقال لهم: إنني أقاتل محتسبا صابرا، فإن سلمتُ فنعمةٌ من الله تعالى، وإن كانت الشهادة فإنَّ ابني مَلِكْشاه وليُّ عهدي .

وساروا ، فلما قارب العـدوُّ جعل له مقدمة ، فصادفت مـقدمتُه عند خلاط مُـقَدَّمَ الرومية في نحـو عشر آلاف من الروم، فاقـتتلوا ، فانهزمت الروميـة ، وأُسِرَ مقدَّمهم فحُمِل إلـى السلطان فجدَع أنفه، وأخذ بالسلب إلى نظام الملك، وأمره أن يرسله إلى بغداد .

فلما تقارب العسكران أرسل السلطان إلى ملك الروم يطلب منه المهادنة ، فقال : لاهدنة إلا بالرَّي ، فـانزعج السلطان لذلك ، فقال له إمامه وفقيهه أبو نصر مـحمد بن عبد الملك البخاريُّ الحنفي : إنك تقاتل عن دين وعَدَ الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان ، وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح ، فالْقَهم يوم الجمعة بعد الزوال في السـاعـة الـتي تكون الخطبـاء على المنابـر فـإنهم يدعـون للمجاهدين بالنصر ، والدعاءُ مقرون بالإجابة .

فلما كـان تلك الساعة صلى بهم ، وبكى الـسلطان فبكى الناس لبكائه ، ودعــا ودعـوا مـعـه ، وقـال لهـم : من أراد الانصـراف فلينصرف، فما ههـنا سلطان يأمر وينهى ، وألقى القوس والنشاب، وأخذ السـيف والدبوس ، وعقـد ذنب فرسـه بيده ، وفعـل عسكره مثله، ولبس البياض وتحنَّط ، وقال : إن قُتلت فهذا كفني .

وزحف إلى الروم ، وزحـفوا إليـه ، فلما قـاربهم ترجَّل وعفَّـر وجهه على الـتراب وبكى وأكثر الدعاء ، ثم ركب وحَـمَل، وحملَتِ

العساكر معه ، فحصل المسلمون في وسطهم ، وحجز الغبار بينهم، فقَتَل المسلمون فيهم كيف شاؤوا ، وأنزل الله نصره عليهم ، فانهزم الروم ، وقُتِل منهم مالايحصى ، حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى.

وأُسِر ملك الروم ، أسره بعض غلمان كوهرائين فأراد قتله ولم يعرفه، فقال له خادم الملك : لاتقتله فإنه الملك، وكان هذا الغلام قد عرضه كوهرائين على نظام الملك فرده استحقارًا له ، فأثنى عليه كوهرائين ، فقال نظام الملك : عسى أن يأتينا بملك الروم أسيرا فكان كذلك ، فلما أسر الغلام الملك أحضره عند كوهرائين، فقصد السلطان وأخبره بأسر الملك ، فأمر بإحضاره، فلما أُحضر ضربه السلطان ألب أرسلان ثلاثة مقارع بيده، وقال له : ألَمْ أُرسل إليك في الهدنة فأبيت ، فقال: دعني من التوبيخ وافعل ماتريد ، فقال السلطان: ماعزمت أن تفعل بي إن أسرتني ؟ فقال : أفعل القبيح، قال له : فما تظن أني أفعل بك ؟ قال إما أن تقتلني، وإما أن تشهِّرني في بلاد الإسلام ، والأخرى بعيدة وهي العفو وقبول الأموال واصطناعي نائبا عنك ، قال: ماعزمت على غير هذا ، ففداه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار ، وأن يرسل إليه عساكر الروم أي وقت طلبها، وأن يطلق كل أسير في بلاد الروم، واستقر الأمر على ذلك ، وأنزله في خيمة ، وأرسل إليه عشرة آلاف دينار يتجهز بها، وأطلق له جماعة من البطارقة ، وخلع عليه من الغد، فقال ملك الروم : أين جهة الخليفة ؟ فدُلَّ عليها فقام وكشف رأسه وأومأ إلى الأرض بالخدمة ، وهادنه السلطان خمسين سنة، وسيَّره إلى بلاده،

وسيَّر معه عسكراً أوصلوه إلى مأمنه ، وشيَّعه السلطان فرسخًا [١] .

وهكذا عشنا مع هذا الخبر الذي ضرب فيه المسلمون بقيادة السلطان ألب أرسلان مثلا عاليا في البطولة والتضحية .

فهذه المعركة الهائلة لايشبهها إلا بعض معارك الصحابة رضي الله عنهم كاليرموك ونهاوند ، حيث يتقابل المسلمون مع عشرة أضعافهم وأكثر ، ثم يكون النصر إلى جانب المسلمين في ساعات معدودة .

ولقد ظهرت القوة المعنوية للمسلمين في هذه المعركة بشكل بارز ، حيث لم يَعُدْ هناك نظر إلى السلاح ، وإنما اشرأَبَّت الأعناق إلى من بيده مقاليد كل شيء جل وعلا ، وأيقن القادة والجنود أنه إذا لم يتداركهم الله سبحانه بنصر من عنده فإنهم لن يكسبوا المعركة أبدا ، ولكنهم قد وطَّنوا أنفسهم على البديل الأعلى ، وهو أن يتقبلهم الله تعالى شهداء ، وتعلقت آمالهم بإحدى الحسنيين : إما النصر أو الشهادة .

ولقد كان لقائد المسلمين أثر كبير في تقوية معنويتهم ، وتعبئة مشاعرهم نحو الثبات أمام الأعداء .

ولاننسى أثر العالم الرباني أبي نصر محمد بن عبد الملك البخاري ، فقد قام بتأييد السلطان ، وقوَّى قلبه برجاء أن يكون الفتح على يديه ، وبتذكيره بالهدف السامي الذي يجاهد من أجله وهو نصر هذا الدين العظيم الذي وعد الله سبحانه بنصره على جميع الأديان ، وأرشده إلى الوقت الأفضل للهجوم على الأعداء ، فتقبل السلطان توجيهاته ، وقوي أمله بالله تعالى .

---

(١) الكامل في التاريخ ٨/١٠٩ - ١١٠ ، وانظر البداية والنهاية ١٢/١٠٧ - ١٠٨ .

وهكذا يؤدي العلمـاء الربانيـون دورهم المطلوب منهم في تقـوية الروح المعنوية لدى المجـاهدين ، وهذا هو السلاح القـوي الذي يملكه المسلمون الصادقـون ، ويفقده أعداؤهم ، وقد ظهـر واضحًا في هذه المعركة أثر هذا السلاح .

أمـا المحاورة التي جـرت بين السلطان ألب أرسـلان وملك الروم فإنها كانت مثلا عاليا في تمثيل أخلاق المسلمين وعلو سياستهم .

وإن هذه المعاملة إضـافة إلى كونها تمثل أخلاق المسـلمين المعروفة في إكرام الزعمـاء وتألُّفِهم للإسلام ، فإنهـا من الناحية السياسـية قد ضمنت لزعماء المـسلمين حقهم في التكريم والاحترام فيـما لو وقعوا أسرى لدى الأعداء لعقود من الزمن .

فللّه در هذا السلطان الكبير والسياسي القدير !!

لقد جاء ملك الروم بِقَضِّه وقَضِيضِه وخيله ورَجِله وعتاده ليقضي على المسلمين وليمحو الإسلام من الوجود، وكان من غروره أنه أقطع بلاد المسلمين لأمـرائه ، فكان له بالمرصاد فـرقة من جيـوش المسلمين أبادت خضـراءه وحطَّت كبرياءه ، وعـاد ذلك الجبار المتـغطرس يقبِّل الأرض بين يدي السلطان ألب أرسـلان ويتـودد له ليقـبله نائبـا عنه، وذلك منتهى الشعور بالذلة والمهانة ، وإذا كان جزء من جيش السلطان أرسلان قد سـحق جيشه فكيف لو أحـضر السلطان جيشـه كاملا ؟! وكيف لو اتفق مع بقية أمراء المسلمين على جهاد الروم ؟ !

* * *

الجهاد مع الروم

فى

عهـــد العثمانيين

نشأة هذه الدولة :

الدولة العثمانية تنسب إلى عثمان بن أرطغرل بن سليمان، وجده سليمان هو زعيم إحدى قبائل الغُـزّ التركية، الوافدة من بلاد تركستان على إثر هجمات التتار على بلاد الإسلام ، وقد وصل سليمان بقبيلته إلى بلاد الأناضول عام سبعة عشر وستمائة ، ثم عاد بقبيلته إلى بلاده بعدمـا هدأت الأوضاع على إثر وفاة جنكيـز خان زعيم التـتار، لكنه توفى غرقـا في أحد الأنهار قـرب مدينة حلب ، فـاختلف أبناؤه من بعـده ، فواصل السـيـر بعضــهم ، وقـرر أرطغرل العـودة إلى بلاد الأناضول فعاد معه أربعمائة أسرة من القبيلة .

وقدر الله تعـالى أن يواجه أرطغـرل ومن معه جـيش السلاجـقة بقيـادة علاء الدين السلجوقي وهم يقـاتلون أعداءهم، فقـام أرطغرل بنصـر السـلاجقـة الذين كـانوا قـد أقـامـوا دولة إسلامـيـة في بلاد الأناضول، فكافأه علاء الدين بأن أقطعه جزءًا من بلاده المجاورة للروم في مقاطعة « اسكي شهر » .

ثم توفي أرطغرل وخلفه على تلك الإمارة ابنه عثمان ، وشاء الله تعـالى أن يموت السلطان علاء الدين السلجـوقي عام تـسعة وتسـعين وستمـائة ولم يكن له خليفة يخلفه ، فحـصلت فتن واضطرابات فقام عثمان بالاستيلاء على دولته ، وكان ذلك بداية نشأة الدولة العثمانية .

وقد أحسَّ الأعـداء من الروم والتتار بخطورة هذه الدولة الناشـئة فقـاموا بقتالهـا ، وكان من أعظم الانتصـارات التي حققـها السلطان عثمان استيلاؤه على مدينة « بورصة » الحصينة ، وحينما حاول الروم

الاستعانة بالتتار توجه عثمان نحو التتار فشتت شملهم، وحاصر بورصة حتى استولى عليها في عام سبعة عشر وسبعمائة ٧١٧هـ الموافق ١٣١٧م ، وقد أصبحت بورصة بعد ذلك عاصمة الدولة العثمانية .

ثم تولى السلطان أورخان بن عثمان بعد وفاة أبيه وذلك في عام ستة وعشرين وسبعمائة ٧٢٦هـ الموافق ١٣٢٦م ، وفي عهده تم تنظيم الجيش العثماني ، وبدأ تكوين جيش الانكشارية ، وهو جيش مكون من أبناء الدول الأوربية الشرقية بعدما دخلوا في الإسلام وتم تدريبهم الحربي ، وقد أصبح لهم أثر كبير في توطيد دعائم الدولة العثمانية، وفي عهده توسعت الدولة العثمانية حيث استولى على عدد من الأقاليم الآسيوية .

وفي سنة ثمان وخمسين وسبعمائة - ٧٥٨هـ الموافق ١٣٥٧م- اجتاز سليمان باشا أكبر أولاد السلطان أورخان وولي عهده مضيق الدردنيل الذي يصل البحر الأسود ببحر مرمرة ومعه جزء من جيشه تحت أستار الظلام ، حتى إذا وصلوا إلى الضفة الأخرى قبضوا على ماكان بها من القوارب وعادوا بها إلى الضفة المعسكرة عليها جيوشهم، فانتقل الجيش إلى ضفة أوروبا، وكان عدده ثلاثين ألفا، واحتل ميناء « تزنب » ، ووفقوا بسقوط جزء من أسوار مدينة «جاليبولي» التي تقع على مضيق الدردنيل من جهة أوروبا ، وذلك بسبب زلزال شديد ، فدخلها العثمانيون بدون عناء ، وكان ذلك بداية استيلاء العثمانيين على شرق أوروبا .

وقد توفي سليمان بن أورخان بعد ذلك بعام وانتقلت ولاية العهد إلى أخيه مراد .

ثم تولى السلطان مراد الأول بن أورخان بعد وفـاة أبيه عام واحد وسـتين وسبـعمـائة ٧٦١هـ الموافق ١٣٦٠م ، وفي عهـده بدأ جهـاد العثـمانيين في أوروبا الشـرقيـة بشكل واضح ، حيث استـولى على إمـارات البلقـان ، وسقطت مـدينة « أدرنة » بأيـدي العثـمـانيين ثم اتخذوها عاصمة لهم ، كما تم فتح مقدونية وصوفيا وسالونيك، ومن أبرز المعارك التي خاضـها العثمـانيون في شرق أوروبا معركـة قوصوه وكانت بقـيادة السلطان مراد نفـسه وقد انتـصر فيهـا العثمـانيون على جيش كثيف من الأحلاف النصرانية التي تكونت من الصِّرب والبُشناق والمجر والبلغـار والألبانيين ، وكـانت في هذه المعركة نهـاية السلطان مراد حـيث كان يتفقـد القتلى فقام صـربي من بينهم فطعنه على حين غفلة منه فقتله .

ثم تولى السلطان بايزيد بن مـراد الأول بعد اسـتشـهاد أبيـه عام واحد وتسعين وسبعمائة ، ٧٩١هـ الموافق ١٣٨٩م ، وفي عهده قامت حملة صليبية بتحريض من البابا ، فاجتمع جيش أوروبي عظيم بقيادة «سجـسْمُند » ملك المجر فزحـفوا على بلدان شرق أوروبا واسـتردوا بعضَ البلاد التي استولى عليها الـعثمانيون ، وكان السلطان « بايزيد» غائبا في آسـيا ، فلما علم بذلك عـاد سريعًا والتقى بهم في مـعركة كبـيرة انهـزم فيهـا الصليبـيون شر هزيمة وذلك عـام ثمانيـة وتسعين وسبعمائة ٧٩٨هـ الموافق ١٣٩٦م .

وفي عـهد السلطان بـايزيد تم حصـار القسـطنطينية ، وكـاد أن يفتحها لولا مداهمة جيش تيمورلنك المغولي من المشرق، فاضطر إلى فك حصـار القسطنطينـية والزحف نحو المشـرق لمقاومـة التتـار، وقد جرت بينهم معركة هائلة أبدى فيها السلطان بايزيد بسالة عظيمة إلا أن تفوق التـتار في العـدد وتسلل بعض جيش العثـمانيين نحـوهم جعل المعركـة لصالح التتـار فانهزم العـثمانيـون ، ووقع السلطان بايزيد في الأسر هو وابنه مـوسى وذلك في آخر عام أربعة وثمـانمائة ، ثم مات عام خمسة وثمـانمائة وتفرق أولاده وحدثت بينهم فتن وحروب كادت تقضي على دولتهم إلى أن استطاع أحدهـم وهو السلطان محمد الأول ابن بايزيد أن يسيطر على الوضع ، وقد بقي في السلطة ثماني سنوات قضـاها في حروب داخلـية أخضع بـها الأمراء الذيـن انتقضـوا على دولته.

وبعد وفـاة السلطان محـمد الأول عام أربعـة وعشريـن وثمانمائة ٨٢٤هـ الموافق ١٤٢١م ، تولى السلطة ابنه مـراد الثاني والد السلطان محـمد الفاتح ، وفي عـهده أكمل العـثمانيـون سيطرتهم على آسـيا الصغرى وشرق أوروبا .

ومن أشهر المعارك التي خاضها معركة « وارنه » ، وكان السلطان مراد قـد تنازل عن السلطنة لابنه محمـد الفاتح ، وكان آنذاك صغـير السن حيـث لم يتجاوز الرابـعة عشـرة من عمـره فاغتـر بذلك ملوك أوروبا الذين كانوا قـد عقدوا هدنة مع الـسلطان مراد فنقضـوا الهدنة واغتنمـوا فرصة غيـاب السلطان مراد حيث كان في عـزلة في إحدى

قرى الأناضول ، وجمعوا جيشًا كبيرًا بتحريض من البابا « أوجانيوس الرابع » ، وما أن علـم السلطان مراد بذلك التـجمع حـتى خرج من عزلته وعبر مـضيق البسفور ومعه أربعون ألفـا قد اختارهم من الجيش العثـماني ، فـزحف بهم نحو تجـمع الأعداء ، ودارت بين الفـريقين معركـة رهيبة تحت أسوار مدينة « وارنه » ، وقـد كاد النصر أن يكون حليف النصارى لما يتـمتعون به من الحـماس والحميـة الدينية، ولكن ماقـام به السلطان مراد من قتل ملك المجـر قد غيَّـر مسيرة المعـركة، حيث أصيب الأعداء بالخوف والهـلع لما رأوا رأس ملك المجر مرفوعة على رمح والمسلمـون يكبـرون فـرحين ، فحـمل المسلمـون عليـهم وهزموهم شر هزيمة وذلك في عام ثمانية وأربعين وثمانمائة .

وفي عام خـمسـة وخمسين وثمـانمائة ٨٥٥هـ الموافق ١٤٥١م ، تولى السلطان محـمد الفاتح بن السلطان مراد ، وقـد لُقِّب بالفاتح لما تم على يديه من فـتح القسطنطينـية الذي يعـتبر مـن أعظم فتـوحات المسلمين (١) .

فتح القسطنطينية :

لقد كان هذا الفتح أمـلا كبيرًا يتمنى قادة المسلمين تحـقيقه منذ أن طرق مسـامعـهم قول رسول اللـه ﷺ « لَتُفتـحنَّ القسطنطينيـة فلنِعْم

---

(١) انظر كتاب « تاريخ الدولة العليـة العثمانية » لمحمـد فريد بك المحامي ص١١٣-١٥٩ وكتـاب « تاريخ الدولة العثمـانية » للدكتـور على حسون ٨-٢١ ، وكـتاب «السلطان محمد الفـاتح » للدكتور عبد السلام فهمي ١١ - ٢٢ ، وكـتاب « التاريخ الإسلامي» للدكتور أحمد شلبي ٥/٦٦٩ - ٦٧٦ .

الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش » [1] ، وقد سبق ذكر الحملة الجهادية التي كانت في عهد أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه وكانت بقيادة ابنه يزيد ، والحملة الأخرى التي كانت في عهد سليمان بن عبدالملك وكانت بقيادة أخيه مسلمة، ثم كانت محاولات أخرى، ولكن فتح هذه المدينة كان مدخرا للسلطان الشاب الشجاع محمد بن مراد العثماني الذي حاز على لقب الفاتح بعد ذلك، فكيف تم فتح هذه المدينة العظيمة التي أعجزت قادة المسلمين قبل ذلك .

لقد كان واضحًا لدى سلاطين آل عثمان أن فتح القسطنطينية لايتم إلا من جهة أوروبا لكونها محاطة من جهة آسيا بالبحر، فلذلك عقدوا العزم على توسيع فتوحاتهم في شرق أوروبا، ثم نقلوا عاصمتهم إلى « أدرنه » بعد فتح جزء كبير من أوروبا، فأصبحوا يستطيعون حصار القسطنطينية من جميع جهاتها بعد أن صارت مملكة صغيرة في داخل امبراطوريتهم الواسعة ، فكانت هذه الأعمال الجهادية السابقة تمهيدًا لما قام به السلطان محمد الفاتح من فتح هذه المدينة .

ولما عزم السلطان الفاتح على فتح القسطنطينية زحف بجيش يبلغ خمسين ألفا ، ثم سيطر على جميع منافذ المدينة حتى لايصل إليها مدد من الخارج .

وقد عرض السلطان الفاتح على ملك الروم قسطنطين أن يسلم المدينة في مقابل سلامة جميع من فيها على أرواحهم وممتلكاتهم ،

---

(١) مسند أحمد ٤/ ٣٣٥ .

فرفض قسطنطين ذلك، وكان ذلك في اليوم الخامس عشر من شهر جمادى الأولى من عام سبعة وخمسين وثمانمائة ٨٥٧هـ الموافق ١٤٥٣م .

ولما كان لابد من الحرب فإن السلطان أمر برمي أسوار المدينة بالمدافع ، وكان الجيش التركي مزودًا بمدافع من أضخم وأحدث المدافع الموجودة في العالم آنذاك .

وقد خاطب الفاتح قادته بقوله : إن تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث رسول الله ﷺ ومعجزة من معجزاته ، وسيكون من حظنا ماأشاد به هذا الحديث من التقدير ، فأبلغوا أبناءنا العساكر فردًا فردا أن الظفر العظيم الذي سنحرزه سيزيد الإسلام قدرًا وشرفا ، ويجب على كل جندي أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه فلا يصدر عن أحد منهم مايجافي هذه التعاليم ، وليجتنبوا الكنائس والمعابد ولايمسوها بأذى ،ويدعوا القساوسة والضعفاء والعجزة الذين لايقاتلون.

وهذا الخطاب يبين لنا ارتباط الفاتح الوثيق بالدين واستمداده النصر من الله تعالى . وأنه كان يقاتل عن عقيدة دينية قوية ، وقد أشاع هذه العقيدة في قادته وجنده حتى أصبحوا يقاتلون بمعنوية عالية، إلى جانب ماتزودوا به من سلاح مادي قوي، وإذا اجتمعت القوتان المعنوية والمادية حصل النصر بإذن الله تعالى .

خطط حربية ناجحة :

كان أقرب مكان للسيطرة على القسطنطينية من البحر من ناحية

ميناء القرن الذهبي ، وكان الروم يدركون خطورته فيما لو دخلت منه سفن المسلمين فوضعوا في مدخله سلسلة حديدية ضخمة ، وقد حاول المسلمون قطع هذه السلسلة فلم يستطيعوا لقوة الحامية المكلفة بالحراسة من الروم ، ففكر السلطان الفاتح بخطةٍ لنقل السفن من مضيق البوسفور إلى داخل القرن الذهبي عن طريق البر على مسافة ستة أميال تقريبا ، ولما وافق المستشارون على الخطة أمر الفاتح بتمهيد الأرض ومد ألواح الخشب المدهونة بالزيت والشحم ، ثم قام الجنود بسحب السفن عليها ، فاستطاعوا أن يُنزلوا في القرن الذهبي سبعين سفينة في ليلة واحدة ، وقد أذهلت هذه الخطة الأعداء وحطت من معنويتهم الحربية ، حيث أصبح بإمكان سفن المسلمين أن تضرب الأعداء عن قرب وأن تشلَّ حركة الملاحة البحرية لديهم .

ومن الخطط الحربية التي استخدمها المسلمون حفر الأنفاق لإدخال الجنود منها إلى المدينة ، وكانوا كلما اكتشف الأعداء ذلك حفروا في مكان آخر ، فكان ذلك مما جعل الأعداء في رعب دائم لاحتمال أن يفاجئهم المسلمون من أي مكان .

ومن الخطط الحربية المذهلة قيام المسلمين بصناعة برج خشبي مرتفع من ثلاثة طوابق ، وقد فوجئ به الأعداء وهو يعلو أسوارهم وقد تحصن به عدد من المجاهدين الذين استعدوا لاقتحام سور المدينة من أعلاه ، وقد قال المؤرخ البندقي « باربارو» عن هذا البرج الهائل: «لو اجتمع جميع نصارى القسطنطينية على أن يصنعوا مثل هذه القلعة لما صنعوها في شهر ، وقد صنعها المسلمون الأتراك في ليلة واحدة، بل في أقل من أربع ساعات » .

وهذا اعتـراف من الأعداء آنذاك بتـفوق المسلمين في الصـناعات الحربية ، وقد كان ذلك مكمـلا لتفوقهم في الروح المعنوية المبنية على تمسكهم بالدين الإسلامي الحنيف .

الهجوم الأخير :

حينما استنفذ السلطان الفاتح مقاصـده في تحطيم معنوية الأعداء وهَدْم أجزاء من الأسـوار خطط للهجـوم العام من البـر والبحر فـأمر بالهجـوم من جمـيع الجهات وانطلق الجنود المـغامرون نحـو الأسوار وصعدوا على السلالم في مـحاولة للهبوط على المدينة بشكل مكثف، ولكنهم واجهـوا مقاومـة عنيفة من الأعـداء ، سواء من جهـة البر أو البحـر، واستطاع الأعـداء أن يقلبوا بهـم السلالم ، وسقـط عدد من المسلمـين صـرعى تحت الأسـوار، ولكن ذلك لم يفتّ في عـزائم المسلمين، بل استمروا في الهـجوم ، وكان السلطان يدفع بالجنود إلى الأسوار بالتناوب ، وكـان ذلك يعطي المسلمين قوة حـيث تواجه كل فرقة منهم جيش الأعداء وأفـرادُه قد أنهكوا من ضراوة الحرب وعُنْف المقاومـة ، وكان السلطان يقصـد بذلك تحطيم معنوية جـيش الأعداء حتى تضـعف مقاومتـهم ، وفي أثناء ذلك الهجوم المتـواصل استطاع أحد الجنود الأتراك أن يقتل قائد الأعداء في المنطقـة الشمالية مبارزة، وبمقتله انهارت معنويات فرقتـه وولّى أفرادها هاربين، فانتهز السلطان هذه الفرصة فدفع بأفراد فرقة الانكشارية المشهورين بالشجاعة والمغامرة إلى ذلك المكان فـاندفعوا كـالسيل الجـارف واستطاعوا دخـول المدينة ورفعوا فوق أسوارها أعلام العثمانيين .

وفي أثناء ذلك أصيب جستنيان أبرز قادة الأعداء بجرح بليغ ونُقِل بعيداً عن ميدان المعركة ، أما الملك قسطنطين فإنه أصيب بالفزع والذعر الشديد حينما رأى جنود العثمانيين ينطلقون بعنف وسرعة نحو داخل المدينة ، فنزل عن حصانه وخلع ملابسه القيصرية وصار يدافع بسيفه حتى قتل .

وفُتحت جميع أبواب المدينة بعد أن فرَّ حماتها وتم فتح هذه المدينة العريقة التي استعصت على جميع الغزاة من قبل وذلك في عام ٨٥٧هـ الموافق ١٤٥٣م ، وتحقق في ذلك الأمير الشاب وجنوده بشارة النبي ﷺ وثناؤه العظيم (١) .

فتح مدينة بلغراد :

بعد أن توفي السلطان محمد الفاتح في عام ستة وثمانين وثمانمائة خلفه في الحكم ابنه بايزيد ، ثم تنازل عن الحكم لولده السلطان سليم عام ثمانية عشر وتسعمائة، فلما توفي خلفه في الحكم ابنه سليمان القانوني عام ستة وعشرين وتسعمائة ، وهو عاشر سلاطين آل عثمان.

وفي عهده تم فتح مدينة بلغراد ، وكان سبب تسيير الجيش نحوها أن ملك المجر قتل السفير الذي أرسله السلطان بطلب دفع الجزية التي كانت مقررة قبل ذلك، فاستشاط السلطان غضبا وأمر بتجهيز جيش كبير لمحاربة المجر وقاده بنفسه ، وأرسل أحد مشاهير قواده وهو أحمد باشا لمحاصرة مدينة شابتس التي تقع إلى الشمال من

(١) انظر تاريخ الدولة العلية / ١٦٠ - ١٦٥ ، وكتاب الدولة العثمانية / ٢٢-٣٢ ، وكتاب « السلطان محمد الفاتح » / ٧٥ - ١٢٦ .

بلغراد وذلك في شعبان عام سبعة وعشرين وتسعمائة ففتحها، ثم وجه السلطان ذلك الجيش لمساعدة الجيش الذي يحاصر بلغراد، وقد تم فتح هذه المدينة المشهورة بعد دفاع شديد، ثم أصبحت بعد ذلك معقلا للمسلمين تنطلق منه الجيوش لفتح ماوراء نهر الدانوب [١] .

وهكذا كانت رايات المسلمين ترفرف وسط أوروبا ، وهي تحمل عزة الإسلام وقوة دولته ، ولولا ماكان يحصل في تاريخ المسلمين من الحروب الداخلية التي كانت تضعف قوتهم لاكتحست جيوشهم أوروبا كلها وغيرها من بلاد العالم .

فتح جزيرة رودس :

كانت جزيرة رودس معقلا حربيا لأعداء الدولة العثمانية تلجأ إليه سفنهم الحربية ، ولقد حاول اسلاف السلطان سليمان القانوني فتح هذه الجزيرة فلم يتمكنوا لشدة اهتمام الدول الأوروبية بها وحمايتهم لها، ولقد كان الدافع للاهتمام بفتحها أن تكون حلقة اتصال بين اسلامبول ومصر ولكي لاتكون مركزا حربيا للأعداء .

ولقد انتهز السلطان سليمان فرصة انشغال ملوك أوروبا بحرب بينهم فجهز جيشًا بحريًا وآخر بريًا ليكون على الساحل المقابل للجزيرة، وقبل الهجوم أرسل السلطان إلى رئيس الرهبان الذين كانوا مسيطرين على الجزيرة يدعوهم إلى إخلاء الجزيرة مع ضمان عدم التعرض لأنفسهم وأموالهم ، فلم يقبل رئيسهم هذا العرض فأمر السلطان بحصارها ، ولقد قاوم أهلها بما عندهم من سلاح ولكنهم لم

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية / ١٩٩ - ٢٠٢ .

يستطيعـوا الصمود أمام المدافع العـثمانية ، فأرسل رئيـسهم اثنين من رهبانه إلى السلطان يطلـب منه السماح لهم بإخلاء الجـزيرة وغادروها إلى جزيرة مـالطة ، وبذلك اصبحت جـزيرة رودس جزيرة إسلامـية تحت سلطان الدولة العثمانية [1] .

وهذا مثل جيد في دراسة واقع الأعداء ، وانـتهاز الفرص المناسبة لتحقيق المكاسب الحربية بأقل الخـسائر، وهذا يحتاج إلى رصد حربي دقيق واستـعداد قوي بالرجال والسلاح لتـحقيق الأهداف المطلوبة في الوقت المناسب .

إنقاذ تونس من النصارى :

قال الشـيخ مرعي الحنبلي في كـتابه « نزهة الناظريـن» عند ذكر السلطان سليم ولد السلطان سليمان مـانصه : وكانت ولايته سنة أربع وسبعين وتسعمائة، وفي أيامه كان فتح حلق الوادي ببلد تونس المغرب بعد اسـتيـلاء النصارى عليـها بسـبب الاختلاف الواقـع بين سلاطين المغـرب وآل حـفص فـصار بعـضـهم يتـقـوى على بعض بالإفـرنج وأطمعـوهم في بلاد المسلمين فاستـولوا عليها وتمكنوا منهـا وحصنوا الحصـون وأحكموا القلاع بحـيث أيس المسلمون من فـتحهـا وصاروا تحت حكم الإفرنج وأخـذوا مملكة تونس ووضعوا السـيف في أهلها، فقتلـوا الرجال وسبوا النساء والأولاد، فـلما بلغ السلطان سليم ذلك أرسل مائتي غراب [2] مشحونة بالأبطال والمدافع وآلة الحرب وصحبة

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية / ٢٠٣ - ٢٠٦ .

(٢) أي سفينة .

ذلك سنان باشا وقلج علي باشا ، وكانت غزوة مشهورة ووقعة معدودة من أعظم غزوات بني عثمان يحتاج تفصيلها لمؤلف ، فنصر الله المسلمين بعد أن قُتل منهم عشرة آلاف مع الحصار المديد والقتال الشديد . ومن العجائب أن الإفرنج كانوا أنشأوا هناك قلعة منيعة أقاموا في استحكامها وإتقان بنائها ثلاثا وأربعين سنة فافتتحها المسلمون بصحبة الوزير المذكور في ثلاثة وأربعين يوما من أيام محاصرتها، وذلك في سنة إحدى وثمانين وتسعمائة ، ثم خرّب الوزير القلاع والحصون ولم يبق لها رسم ووصلت البشائر للسلطان سليم، وكان في نفسه فتح إقليم الأندلس في ثاني سنة فلم يمهله الأجل رحمه الله . انتهى [1] .

هذا الخبر يبين لنا دور الدولة العثمانية في حماية العالم الإسلامي، فإنه مع بعد بلاد تونس عن عاصمة الدولة العثمانية فإن السلطان سليم قد أهمه أمرها لما بلغه استيلاء النصارى عليها، فأرسل لها جيشا بحريا قضى على وجود الأعداء فيها وأعادها إلى حكم المسلمين .

إن هذا الاهتمام الكبير من سلاطين آل عثمان ببلاد الإسلام يجعل الأعداء يترددون كثيرا في الهجوم على أي بلد إسلامي وإن كان صغيرا ولاقوة فيه ، وهذا من مزايا وجود الدولة الإسلامية الكبرى، فالأشبال في العرين ضعاف وليس بإمكانهم إنقاذ أنفسهم ، ولكن

---

(١) المختار المصون للدكتور محمد بن حسن موسى / ١٢٩٩ عن كتاب « نشر المثاني» للشيخ محمد القادري .

يوشك أن يعود الأسد إلى عرينه فينتقم ممن أوقع الضرر بأشباله وإن بعد مكانه .

جهاد المتمردين في بلاد الأفلاق :

كان ميخال حاكما لبلاد الأفلاق من قبل السلطنة العثمانية، فخرج عن الطاعة وجمع جموعًا من النصارى وتمرد وعاث في بلاد العثمانيين في أوروبا ، فأرسل له السلطان محمد بن مراد بن سليم جيشا بقيادة أحد وزرائه ، ولكن الأعداء ظفروا به وبجيشه فزاد الأعداء عتوا وتجبرا .

وقد أشار عليه وزيره سنان باشا بأن يسافر إلى الأعداء بنفسه، فخرج بجيشه من دار خلافته في شوال سنة أربع بعد الألف، ووصل إلى قلعة في غاية المنعة والتحصين، فنازلها بجنوده فاشتد البلاء بمن فيها فخرجوا طائعين، وسلموها في أواخر صفر سنة خمس وألف، ووصل خبر أخذها إلى ملك الأنكروس فقام وقعد وأرغى وأزبد لأنها كانت عندهم من القلاع المعتبرة، فكاتب ملوك النصارى يطلب الإمداد منهم بالعساكر والذخائر فجاؤوا إلى إمداده بسبعة جيوش يضيق عنها الفضاء ، وكان السلطان محمد سار بعسكره إلى القلعة التي بها المعدن فبينما هو في أثناء المرحلة الثالثة إذ دهمته النصارى من كل جانب وأحاطوا به وكان عسكر الإسلام حينئذ غير مستعد والنصارى في غاية الكثرة جدًا بحيث إن جمعهم المخذول لايُحصى، وكان يوم دَهْمتهم يوم الخميس ثاني شهر ربيع الأول من السنة ووقع حرب عظيم في ذلك اليوم كله إلى أن دخل الليل فتفرقوا، وأصبحوا يوم الجمعة

متحاربين أيضا واستعدت النصارى أزيد من اليوم الأول فكانوا غرقى في الفولاذ ثم هجموا دفعة واحدة على المسلمين وفرقوهم بددًا ووصلوا إلى ميخم السلطان فطلب السلطان إليه معلمه الخوجه سعد الدين وكان في صحبته فحضر بين يديه وجعل يثبته ، والسلطان يستنهض عساكره الخاصة به ويستغيث بالله، فلم يكن بأسرع من أن قَوِيَ المسلمون وأدركهم بعض المنهزمين ففرقوا شمل النصارى وأبادوهم ودخلوا بينهم والتحم القتال ، وتراجع جميع العسكر فكسروا النصارى وردّوهم على أعقابهم ووقع السيف فيهم وهم فارّون حتى قتل بعضهم بعضا من الزحام وغيره، ووهب الله تعالى له النصر والتأييد ولم يسلم أحد من الكفار إلا من هرب، وغنم السلطان ومن معه غنيمة عظيمة، وأكثر ذلك كان على يد الوزير سنان باشا ابن جغال والوزير حسن باشا ابن محمد باشا ، وأُحصيَتْ قتلى المسلمين فكان الذي استشهد من القوّاد مايقرب من أربعمائة، ومن أصحاب الألوية المعبر عنهم في اصطلاح الروم بالصناجق بضعة عشر رجلاً، ومن الأمراء الكبراء أربعة أنفار،ومن العساكر مابين فارس وراجل مالا يُحصى، ووافق بعد الظفر أن السلطان قتل من عسكره الفارّين جماعة كثيرين وقبض على باقيهم وحقرهم غاية التحقير في منصرفه وعاقب بعض من فرّ بقطع علوفته[1] وضبط ملكه وماله لجهة بيت المال.

والحاصل أن ما وقع له من هذه النصرة لم يقع لأحد من ملوك آل عثمان ، وذلك إنما هو بمحض لطف إلهي وإمداد رباني غير متناه، ولقد حكى كثير من السيّاح أن ملوك الفرنج تطلق على هذا السلطان:

---

(١) أي راتبه .

« صاحب القـرآن » وهذا الوصف إنما هو لمن بلغ في الشجاعـة المرتبة التي لاتُسامى ،وأنهم على عادتهم يصوّرون ملوك آل عثـمان فيقدمون هذا في التـصوير على كل الملوك وذلـك كله بسبب هذه النصـرة التي رُزِقها (١).

وبعد : فإن ماجرى في هذه المعركة من انتصار المسلمين كان على خلاف المعـتاد في المعارك الحـربية، فالسلطان مـحمد كـان في جيش صغير بالنسبة لجيوش النصارى الكـثيرة التي اجتمعت من بلاد كثيرة، وداهمت المسلمين على غـرة، ولقـد حصل في بداية المعـركة انهـزام وتفرق في جـيش المسلمين أمـام هجوم النصارى المـركز، وهذا شيء طبـيعي، ولكـن الشيء الذي جرى علـى خلاف المعـتـاد أن ينتصـر السلطان هو ومن ثبـتوا معـه وهم قليل على عدو يفـوقهم كثـيرا في العدد والاستـعداد، ولاتفسير لذلك إلا مـاكان من لجوء السلطان إلى الله عز وجل واستغاثته به ، ومـاكان من معلمه سعد الدين الذي ظل يثبته ويقوي عزيمتـه ، فكان هذا السلاح المعنوي أقوى من كل ماأعده الأعداء من جنود وذخائر، وإذا تذكرنا ماجـاء في ترجمته من أنه كان صالحا عابدا ساعيا في إقامة الشـعائر الدينية مراعيا لأحكام الشريعة، فإننا لا نستغرب أن يظفر بنصر الله تعالى وتأييده .

إن الجندي بحكم تكوينـه الجسـماني يملك طاقـة كـبيـرة، ولكنه لايستخدم - عادة - إلا قليـلا منها ، وهذا القليل في الحرب يصرف جزءا منه للدفاع عن نفسه فيكون جـهده الذي يبذله في الهجوم بنسبة

(١) المختار المصون للدكتور محمد بن حسن بن عقيل موسى / ١١٤٠-١١٤٣، عن كتاب « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر » للشيخ فضل الله المحبي.

قليلة جدا ، ولكن حينما يدخل في ميزان المعركة عامل الإيمان بقضاء الله تعالى وقدره الذي يفرض على المسلم أن يؤمن بأنه لايمكن أن يموت قبل حلول أجله . . وحينما يدخل عامل الإيمان بأن المسلم إنما ينتظر في جهاده إحدى الغايتين الحسنيين : إما الظفر بالنصر العزيز على الأعداء، وإما الظفر بالشهادة التي هي أسمى أماني المؤمنين . . حينما يدخل ذلك في ميزان القوى فإن الجندي الذي يحمل هذه المعاني السامية سيقاتل أعداءه بكل ماوهبه الله جل وعلا من طاقة، وبالتالي فإنه سيكون معادلا لعشرات الجنود ممن لايحملون هذه المعاني.

وذلك إلى جانب مايعتقد به المؤمن من أن الله تعالى يمد أولياءه المؤمنين المتقين بمدد من ملائكته الكرام عليهم السلام، فهو حينما يلقى أعداءه لاينظر إلى عدد أفراد جيشه ، وإنما يكون فكره متجها نحو السماء بطلب المدد من الله تعالى .

وماجاء في آخر هذا الخبر من أن ملوك الفرنج كانوا يطلقون على السلطان محمد بن مراد بأنه صاحب القرآن دليل على اعتقادهم بأنه قريب من الله تعالى وأن نصره عليهم في هذه المعركة لم يكن بجهود مادية وإنما كان بتأييد من الله جل وعلا لتطبيقه ماجاء في كتابه سبحانه.

وهكذا تم عرض أمثلة من جهاد العثمانيين، ولم يكن المقصود استيعاب ذلك ولا كتابة تاريخ لهذه الدولة العظيمة، وإنما المقصود بيان شيء من مواقفهم في إعزاز الإسلام والجهاد في سبيله .

* * *

مواقف وعبر

فى

جهاد المسلمين فى بلاد السند والهند

الجهاد والفتوحات

فى

عهد الأمويين

نبذة عما سبق من الأحداث :

لقد كانت رغبة المسلمين في فتح بلاد السند منذ عهد عمر رضي الله عنه ولكن حال دون ذلك انشغال المسلمين بجهاد الدولتين العظميين آنذاك دولة فارس والروم ، إلى جانب قلة الموارد وكثرة عصابات اللصوص في تلك البلاد .

ففي عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بدأ الجهاد في السند والهند، ومن أخبار ذلك ماذكره البلاذري من أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولى على عمان والبحرين عثمان بن أبي العاص الثقفي في السنة الخامسة عشرة للهجرة، وأنه مضى إلى عمان ووجه أخاه الحكم إلى البحرين(1) ، وذكر أن عثمان ابن أبي العاص قاد حملة بحرية إلى « تانه » ،ووجه حملة أخرى بحرية إلى « بروص» بقيادة أخيه الحكم ، وحملة بحرية ثالثة إلى «خور الديبل» (2) وذكر أنه لقي العدو فظفر ، وأنه كتب إلى أمير المؤمنين عمر يعلمه ذلك ، فكتب إليه : ياأخا ثقيف حملت دودا على عود، وإني أحلف بالله لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم (3).

---

(1) البحرين هي الأحساء كما تقدم .

(2) ذكر الدكتور عبد الله الطرازي أن تانه يطلق عليها « تهانه » وأنها مدينة هندية قديمة على البحر في شمال مدينة بومباي الحالية ، وذكر أن بروص يطلق عليها « بهروج» وأنها على ساحل الهند أيضا ، وذكر أن « خور الديبل » يحتمل أن تكون هي مدينة كراتشي الحالية وسيأتي مايؤيد ذلك - موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب١/ ١٣١ - .

(3) فتوح البلدان / ٦٠٧ .

وهكذا غضب أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه على عثمان بن أبي العاص الثقفي لكونه أوَّلاً غزا بلاد السند والهند بغير إذنه، ولكونه ثانيا لايرى الوقت مناسبا لهذا الغزو حيث إن المسلمين لم يصلوا إلى تلك البلاد عن طريق البر، فهو يخشى على المسلمين أن يُقتطعوا ويهلكوا في البحر .

ولكن لما وصل الفتح الإسلامي إلى مشارف تلك البلاد أذن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بغزوها، وذلك في سنة ثلاث وعشرين، وفي ذلك يقول الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري فيما يرويه عن شيوخه :

قالوا : وقصد الحكَم بن عمرو التغلَبيّ لمُكْران ، حتى انتهى إليها، ولحق به شهاب بن المخارق بن شهاب، فانضم إليه، وأمدّه سهيل بن عديّ ، وعبد الله بن عبد الله بن عتبان بأنفسهما، فانتهوا إلى دُوَين النهر، وقد انفضّ أهل مكران إليه حتى نزلوا على شاطئه، فعسكروا ، وعبر إليهم راسل ملكُهم ملك السند[1]، فازدلف بهم مستقبل المسلمين. فالتقوا فاقتتلوا بمكان من مكران من النهر على أيام، بعدما كان قد انتهى إليه أوائلهم، وعسكروا به ليلحق بهم أخراهم، فهزمهم الله وانهزم راسل وسُلِب ، وأباح المسلمين عسكره، وقُتلوا

---

(١) ذكر الدكتور عبد الله الطرازي أن الطبري أخطأ في جعل « راسل» ملك السند، وذكر أنه حاكم ولاية سندية وأنه يطلق عليه نائب الملك، وأن ملك السند هو «جج» الذي تولى الملك من السنة الأولى للهجرة حتى سنة أربعين - موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٣٤ - .

في المعركة مقـتلة عظيمة، وأتبعوهم يقتلونهم أيامًـا، حتى انتهوا إلى النهر. ثم رجـعوا فـأقاموا بمكران. وكـتب الحكم إلى عمـر بالفتح، وبعث بالأخـماس مع صحـار العبـدي، واستأمـره في الفيلة، فـقدم صحـار على عمر بالفـتح والمغانم ، فـسأله عمـر عن مكران - وكان لايأتيـه أحد إلا سـأله عن الوجـه الذي يجيء منه - فـقـال: ياأميـر المؤمنين ، أرض سهلهـا جَبَل ، وماؤها وشَل [1] ، وتمرها دَقَل[2] ، وعـدوّها بطل، وخيـرها قليل، وشـرّها طويل، والكثـير بهـا قليل، والقليل بها ضائع، وماوراءها شرّ منها . فقال عمر : أسَجّاعٌ أنت أم مخبـر؟ قال: لا بل مخبر، قال : لا ، والله لايغـزوها جيش لي ما أُطِعْتُ ،وكتـب إلى الحكم بن عمـرو وإلى سهيل ألا يجـوزَن مكران أحد من جنودكما، واقتصرا على مادون النهر،وأمره ببيع الفيلة بأرض الإسلام، وقسم أثمانها على من أفاءها الله عليه .

وقال الحكم بن عمرو في ذلك :

لقد شبع الأرَاملُ غير فخرٍ بفيءٍ جـاءَهُمْ مـن مُكْرانِ
أتـاهـم بعد مَسغَبَةٍ و جهدٍ وقد صفِرَ الشتاءُ من الدُّخان
فـإني لايـذُمُّ الجيشُ فْعلي ولاسَيْفي يُـذَمُّ ولاسناني[3][4]

فلما ولي عثمان بن عفـان رضي الله عنه وولّى عبد الله بن عامر

---

(١) الوشل الماء القليل .

(٢) الدقل أردأ التمر .

(٣) في رواية ابن كثير ولا لساني وهو الظاهر لأن السيف هو السنان - البداية٧/ ١٣٦ .

(٤) تاريخ الطبري ٤/ ١٨١ .

ابن كريز على العراق كتب إليه يأمره أن يوجه إلى ثغر الهند من يعلم علمه وينصرف إليه يخبره ، فوجه حكيم بن جبلة العبدي ، فلما رجع أوفده إلى عثمان فسأله عن حال البلاد فقال : ياأمير المؤمنين قد عرفتها وتَنَحَّرتُها ، فقال: فصفها لي ، قال : ماؤها وشَل، وثمرها دَقَل، ولِصُّها بطل، إن قل الجيش فيها ضاعوا، وإن كثروا جاعوا، فقال له عثمان : أخابر أم ساجع ؟ فلم يُغزها أحدا (١) .

يعني هل أنت قصدت السجع في الكلام أم أنك تريد معنى ماتقول، ولما تبين له أنه يخبره عن حقيقة مارأى عزم على عدم غزو تلك البلاد، وقد تقدم كلام صحار العبدي في وصف تلك البلاد، وهو يشبه كلام حكيم العبدي وكونها قد اتفقا في الوصف دليل على الخبرة الدقيقة .

ثم كانت محاولة في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث توجه الحارث بن مرة العبدي في آخر سنة ثمان وثلاثين ومعه ألف مقاتل، وقد واجه عشرين ألفا من أهل القيقان في معركة دامية انتصر فيها المسلمون وأسروا آلافًا من الأعداء .

وهكذا رأينا ماقام به هذا الجيش من أعمال بطولية ، حيث ثبتوا بشجاعة نادرة أمام جيش يبلغ ضِعفهم عشرين مرة ومع ذلك لم يفروا وواصلوا القتال حتى نصرهم الله تعالى على عدوهم وظفروا بذلك العدد الكبير من الأسرى .

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري / ٦٠٧ .

وهذا مـثل يضـاف إلى بطولات المسلمين العـظيمـة في الثبـات واحتمال الشدائد .

ولكن هذا القائد البطل قد استشهد هو وعدد من جيشه في معركة أخرى لقلة جيشه أمام جيش الأعداء وذلك في عام اثنين وأربعين[1] .

(١) موسوعة التاريخ الإسلامـي لبلاد السند والبنجاب لعبد الله الطرازي ١/ ١٣٥-١٣٦، فتوح البلدان / ٦٠٧ - ٦٠٨ .

– الجهاد في السند في عهد معاوية رضي الله عنه –

كانت في هذا العهد محاولات أخرى لفتح بلاد السند وجرت فيها معارك بين المسلمين والكفار وقد تولى القيادة والإمارة على مافتح من بلاد السند كل من :

راشد بن عمرو الجُدَيدي سنة ٤٢هـ .

عبد الله بن سوَّار العبدي سنة ٤٣هـ .

المهلَّب بن أبي صفرة سنة ٤٤هـ .

عبد الله بن سوَّار العبدي مرة أخرى سنة ٤٥هـ .

سنان بن سلمة بن المحبَّق سنة ٤٨هـ .

راشد بن عمرو الجديدي مرة أخرى سنة ٤٨هـ .

سنان بن سلمة بن المحبق مرة أخرى سنة ٥٠هـ .

عباد بن زياد بن أبيه سنة ٥٣هـ .

المنذر بن الجارود سنة ٦١هـ .

حرِّي بن حرِّي الباهلي سنة ٦٢ هـ .

وكان النصر في أكثر المواجهات الحربية حليف المسلمين ، كما أنهم أصيبوا في بعضها (١).

ولقد سطر التاريخ مواقف عالية لبعض هؤلاء القادة ،من ذلك

---

(١) انظر تاريخ خليفة بن خياط / ٢٠٥ – ٢١٣ .

فتوح البلدان للبلاذري / ٦٠٨ – ٦١١ .

شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي / ١/ ٥٣ .

ماذكره البلاذري عن عبد الله بن سوار العبدي أنه كان سخيا ، لم يوقِد أحد نارًا غير ناره في عسكره، فرأى ذات ليلة نارًا فقال: ماهذه؟ فقالوا: امرأة نفساء يُعمل لها خبيص، فأمر أن يُطعم الناس الخبيص ثلاثا (١).

ومن ذلك ماذكره خليفة بن خياط عن سنان بن سلمة بن المحبق قال: فحدثنا أبو اليمان النبال قال : غزونا مع سنان « القيقان » فجاءنا قوم كثير من العدو فقال سنان : أبشروا فأنتم بين خصلتين : الجنة والغنيمة، ثم أخذ سبعة أحجار وواقف القوم ، قال: إذا رأيتموني قد حملت فاحملوا ، فلما صارت الشمس في كبد السماء رمى بحجر في وجوه القوم وكبر ، ثم رمى بها حجرا حجرا حتى بقي السابع ، فلما زالت الشمس عند كبد السماء رمي بالسابع ثم قال: حم لاينصرون ، وكبَّر وحمل وحملنا معه فمنحونا أكتافهم فقتلناهم ، وسرنا أربعة فراسخ فأتينا قوما متحصنين في قلعة فقالوا: والله ماأنتم قتلتمونا ولاقتلَنا إلا رجال مانراهم معكم الآن على خيل بُلق، عليهم عمائم بيض ، فقلنا : ذلك نصر الله ، فرجعنا والله ماأصيب منا إلا رجل واحد فقلنا لسنان : واقفت القوم حتى إذا زالت الشمس واقعتهم ؟ قال : كذلك كان يصنع رسول الله ﷺ (٢) .

وكون هذا القائد يتذكر هذه السنة النبوية ويطبقها دليل على علمه وصلاحه، وهي سنة اختيارية يقدَّم العمل بها إذا لم تقتض مصلحة القتال غير ذلك .

---

(١) فتوح البلدان / ٦٠٨ .

(٢) تاريخ خليفة بن خياط / ٢١٢ - ٢١٣ .

وموضوع رمي الأحجار لعله أراد بها وسيلة انضباط للجيش حتى لايقدموا على القتال حتى يرمي الحجـر السابع ، والمقصود هو التكبير ولكن لعل بعض أفـراد الجيش لايسـمعـون التكبـير بينمـا يرون رمي الأحجار.

وكون هذا الجيش نُصر بالملائكة عـليهم السلام دليل على صلاح القائـد والجنود وأنهم قد بذلوا كل طاقـتهم في الاسـتعـداد للمعـركة والقتال، ولكن الأعداء كانوا فوق إمكاناتهم فنصرهم الله تعالى بجنود من عنده ، والملائكة في القـتـال يقدر الله تعـالى أن الكفـار يرونهم ليصابوا بالرعب والفشل بينما لايراهم المؤمنون لكي لايتكلوا عليهم.

- الجهاد في السند في عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد -

نظرا لما حدث في البلاد الإسلامية من الاضطرابات بعد وفاة معاوية رضي الله عنه فإن الفتوحات الإسلامية قد توقفت في بلاد السند، وحينما استقرت أوضاع بلاد الإسلام في عهد عبد الملك بن مروان بدأ النشاط الجهادي في هذا الإقليم حينما تولى الحجاج بن يوسف إمرة العراق والمشرق .

ولاية سعيد بن أسلم الكلابي على السند :

ولّى الحجاج بن يوسف سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي على إقليم مكران الذي تم فتحه من بلاد السند عام خمسة وسبعين، وكان الوضع فيها مضطربا حيث كان يسيطر عليها طائفة من العرب الذين تمردوا على الدولة الإسلامية وانضموا إلى « داهر » ملك السند وهم العلافيون ، وكان يتزعمهم رجلان منهم هما معاوية ومحمد ابنا الحارث العلافي ، وهم ينتسبون إلى علاف وهو ربان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، وقد استطاع سعيد بن أسلم أن يسيطر على البلاد ، إلا أن العلافيين خرجوا عليه وقتلوه واستطاع محمد ومعاوية العلافيان أن يسيطرا على الحكم في البلاد وذلك في عام ثمانية وسبعين (١).

ولاية مجّاعة بن سعر التميمي :

ولّى الحجاج بن يوسف مجاعة بن سعر التميمي على إقليم

---

(١) فتوح البلدان / ٦١١ ، الكامل في التاريخ ٤/ ٣٦ تاريخ خليفة بن خياط / ٢٩٦ ، وانظر موسوعة التاريخ الإسلامية للطرازي ١/ ١٥٦ .

مكران عام تسعة وسبعين ، وأسند إليه مهمة القضاء على العلافيين وتثبيت حكم الإسلام في ذلك البلد واستئناف الجهاد لفتح السند، وبعث معه جيشا قويا ، ولما أن علم العلافيون بقدومه تركوا البلاد وهربوا إلى داخل بلاد السند تحت حماية « داهر » ملك السند ، ولما وصل مجاعة إلى مكران وفرغ من أمور توطيد الأمن بها توجه إلى «قنابيل» ففتح نواحي منها ، ولكنه مالبث أن توفي بعد عام من وصوله إلى بلاد السند (١) .

ولاية محمد بن هارون النمري على مكران :

بعد وفاة مجاعة بن سعر ولّى الحجاج بن يوسف على مكران محمد بن هارون بن ذراع النمري ، وذلك في عام ثمانين للهجرة .

وقد حدث في ولايته أن أهدى ملك جزيرة الياقوت (٢) إلى الحجاج سفينة تحمل مجموعة من النساء المسلمات اللاتي وُلدن في تلك الجزيرة ومات آباؤهن وكانوا تجارا ، فأراد بذلك التقرب إلى رجال الدولة الإسلامية ، فعرض لتلك السفينة جماعة من اللصوص في بوارج قرب مدينة الديبل، فأخذوا السفينة بما فيها، فنادت امرأة منهن وكانت من بني يربوع : ياحجاج ، وبلغ الحجاج ذلك فقال: يالبيك ، فأرسل إلى ملك السند « داهر » يسأله تخلية النسوة، فقال: إنما أخذهن لصوص لا أقدر عليهم .

(١) فتوح البلدان / ٦١١ ، تاريخ خليفة بن خياط / ٢٧٨، وانظر موسوعة التاريخ الإسلامية ١/ ١٥٨ .

(٢) وتسمى جزيرة سرنديب وهي سيلان التي أصبحت تسمى سيرلانكا .

فبعث الحجاج جيشا بقيادة عبيد الله بن نبهان السلمي لإنقاذ تلك النساء ، ولكن هذا الجيش هزم وقتل قائده .

ثم بعث الحجاج جيشًا آخر بقيادة بُدَيل بن طَهْفَة البجلي وكان شابًّا شجاعًا فدارت معركة دامية من الصباح إلى المساء وكان فرس بديل يهيج من هيبة الفيلة فربط عينيه وقاتل بشجاعة نادرة واستطاع بمفرده أن يقتل نحو ثمانين رجلا من العدو حتى استشهد وانهزم جيشه ووقع بقيتهم في الأسر حيث ضمَّهم ملك السند إلى سجناء الدَّيبل[1] .

* * *

(١) فتوح البلدان / ٦١١-٦١٢ ، موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب للطرازي ١/ ١٦٢ - ١٦٣ .

– حملة محمد بن القاسم وفتح السند –

لما بلغ الحجاج بن يوسف خبر أسر المسلمين في السند ونكبة الجيشين اللذين بعثهما استشاط غضبًا وحزن على مصير هذين الجيشين فأقسم على غزو السند بحملة كبيرة وكتب إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بالأحداث المؤلمة في بلاد السند ويستأذنه في بعث جيش كبير لفتح السند وتخليص السجناء من المسلمين والمسلمات فوافق الوليد بعد تردد .

وجهز الحجاج جيشًا كبيرًا في عام تسعة وثمانين، صرف عليه أموالاً عظيمة وأسند قيادته لمحمد بن القاسم الثقفي(١)، وكان الحجاج قد عرف فيه الجد والشجاعة وحسن الإدارة ،ولقد وُفِّق إلى حد كبير في إدارة ذلك الجيش ثم في إدارة شئون البلاد بعد فتحها كما سيتبين لنا من عرض فتوحاته وسيرة عمله الإداري .

وسار محمد بن القاسم من العراق في ستة آلاف بكامل تجهيزهم وقد أعد الحجاج له مددًا من شيراز فسار حتى وصل شيراز وانضم إليه ستة آلاف آخرون ، فأرسل المنجنيقات والأسلحة الأخرى الثقيلة بحرًا مع بعض الجيش إلى ميناء الديبل بقيادة خريم بن عمرو وابن المغيرة وأمرهما أن يسبقاه إلى الديبل وسار هو عن طريق مكران(٢) .

---

(١) هو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي ، يجتمع هو والحجاج في الحكم – الكامل في التاريخ ٤/ ١١١ .

(٢) فتوح البلدان / ٦١٢ ، الكامل في التاريخ ٤/ ١١١ ، موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب/ ١/ ١٦٤-١٦٧ .

وهكذا رأينا كيف تجهز هذا الجيش بالأسلحة الثقيلة كالمنجنيقات التي أصبحت فيما بعد تسمى المدافع ، وهذا دليل على تقدم المسلمين في الاستعداد الحربي، وسرعتهم في الاستفادة مما وجدوه من ذلك عند الأمم الأخرى ، مع ماأضافوا إلى ذلك من ابتكارات جديدة .

هذا ولما وصل محمد بن القاسم إلى مكران انضم إليه واليها محمد بن هارون النمري مع جيشه المكون من أربعة آلاف حيث أصبح جيش ابن القاسم ستة عشر ألفًا .

بعد ذلك قام ابن القاسم بفتح بعض المدن في أول السند حيث فتح قَنْزيور وأرمابيل تمهيداً للهجوم على الدَّيبل التي تعتبر من أكبر مدن السند وميناء البلاد ، ويرجِّح بعض الباحثين أنها هي مدينة كراتشي الحالية .

ثم سار بجيشه حتى وصل إلى الديبل وذلك في يوم الجمعة من شهر محرم عام ثلاثة وتسعين .

ووصلت في الوقت نفسه المراكب البحرية التي كانت تحمل بعض الجنود والأسلحة الثقيلة ، فأمر بحفر خندق حول الجيش وقام بتنظيم أموره حيث أنزل الناس على راياتهم ، وَوُضِعت المجانيق الثلاثة التي تَزَوَّد الجيش بها، وأهمها منجنيق يسمى« العَروس» يقوم على القذف به خمسمائة رجل، فحاصر المسلمون مدينة الديبل وجرت بينهم وبين أعدائهم مناوشات حربية .

ولما بدأ المسلمون بالهجوم بالمنجنيق على الحصن خرج منه رجل وطلب الأمان ، فأعطاه ابن القاسم الأمان ، فذكر لهم اعتقاداً سائدًا

عندهم وهو أن بلادهم ستُفتَح على يد جنود الإسلام ، وأن الأمان من ذلك بقاء العَلَم المثبت فوق المعبد وكان معبدهم عظيم الارتفاع وفوقه قبة عليها علم كبير يتدلَّى من الجهات الأربع .

فلما سمع ابن القاسم ذلك الكلام قرر الاستفادة من هذا الاعتقاد فوجه المنجنيق الضخم نحو ذلك المعبد ، وأمر قائد المنجنيق جَعُوبَةَ السلمي بضرب ذلك العلَم ووعده بعشرة آلاف درهم جائزة له إذا أصاب الهدف، ولكن جعوبة اشترط أن يقطع من طول المنجنيق بقدر مترين ، فقال محمد بن القاسم : إذا لم تنجح فقد ضاعت أهمية آلة المنجنيق ، فقال جعوبة : إذا لم أُسقِط العلم ولم أكسر قبة المعبد فلتُقطَع يدي ، وعندئذ وافق ابن القاسم على قطع المنجنيق بعد حصوله على الإذن من الحجاج، ثم صوَّب الرامي منجنيقه فانطلقت القذيفة الحجرية الأولى واسقطت العلم، ثم أطلق القذيفة الثانية فكسر بها قبة المعبد ، فعند ذلك هاج الكفار وخرجوا فناهضهم المسلمون حتى هزموهم وردُّوهم .

وأمر ابن القاسم بالسلالم فوضعت وصعد عليها الرجال ففتحت عنوة وهرب عامل داهر عنها، واختط محمد بن القاسم للمسلمين بها بيوتًا وبنى فيها مسجدًا وأنزلها أربعة آلاف من المسلمين (١) .

وهكذا تم فتح حصن من أهم حصون الكفار في ذلك البلد، وجَرَى في أثناء ذلك أمور تستحق الوقوف عندها، منها التنويه بخبرة

---

(١) فتوح البلدان ٦١٣-٦١٤ ، الكامل في التاريخ ٤/١١١ ، موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب١/ ١٦٨-١٧١ .

المسلمين الحربية حيث كان جعوبة المسلمي صاحب المنجنيق واثقًا من إصابته الهدف إلى الحد الذي غامر فيه على ذلك بقطع يده ، وقبل ذلك دقة خبرته بآلته حيث اشترط قطع مترين من طول المنجنيق ليتكفل للقائد بإصابة الهدف .

فلله درُّهم ما أسرع تفاعلهم مع مكتشفات عصرهم !

وما أبرعهم في الاستفادة من قدراتهم في الوصول إلى معالي الأمور !!

لقد آمنوا بالإسلام حقا وصدقا ففجَّر هذا الدين طاقاتهم ووجههم نحو العلو في الأرض على قواعد الصدق والعدل، وكان لابد للوصول إلى هذا الهدف العالي من اكتساب جميع الخبرات العسكرية والمدنية من حولهم ثم التفوق على غيرهم في ذلك، وكان لهم ماأرادوا فكانوا أبرع من الأعداء في استخدام الأسلحة التي توارثها الأعداء كابرًا عن كابر .

وهكذا تكون نهضة الأمم ورقيها نحو المعالي والتمكين في الأرض.

ومن الأمور التي تستحق الوقوف براعة القائد محمد بن القاسم في اغتنام الفرص المؤدية إلى النجاح، فما أن علم بعقيدة أولئك الكفار القائمة على اعتقاد حلول الهزيمة بهم مع زوال عَلَمهم الكبير حتى غيَّر خطته الحربية وبدأ بقصف ذلك العلَم والقبة التي تحمله ليهزمهم معنويًا قبل أن يواجههم عسكريّا.

وهكذا يجب على القادة أن يتلمسوا مواطن الضعف عند الأعداء

ليوجهوا ضـربـاتهم من خلال جوانب الضعف، فيجـتمع على الأعداء جانب الضعف الذي يهز معنوياتهم ويضـعفها إلى جانب قوة المسلمين التي لايقف أمامها أحد في الغالب .

ولقـد كانت هذه العـقائد مـصـدر إزعاج وضـعف للكفار أمـام المسلمين الأقوياء بعقيدتهم الصافية القوية، فاستفاد المسلمون من ذلك فوائـد عظيمـة كمـا سبق لنا في عـرض مواقف المسلمين مع الـفرس والروم.

وأخيراً وصل محمد بن القاسم إلى السجن الكبير الذي كان ملك السند قد احـتجز فـيه جمعـًا من المسلمين والمسلمات ، بعـضهم من التجار ونسائهم ، وبعضهم من أسـرى الحرب، ونساء فقدْنَ أولياءهن من التـجار الذيـن هلكوا في تلك البـلاد وماحـولهـا، فأفـرج عنهم وتركهم فترة للراحـة ، ثم أعادهم إلى وطنهم الإسلامي، وحقق ابن مسلم في ذلك إجـابة الحجاج حينما قـال : يالبيك ، لنداء تلك المرأة المسلمة التي قالت من وراء القضبان : ياحجاج .

وهكذا كان المسلمون أعزَّةً باعتـزازهم بدينهم ، واهتمامهم بأمور إخـوانهم المسلمين، فليـس من شأن المـؤمن الحق أن ينام قـرير العين هادئ البال، وأن يـنعم بالطيبـات والأمن والراحة وإخوانه المـسلمون يقتَّلون ويشرَّدون ويعذبون . وتُمَلؤُ بهم السجون ، وينالون فيها أنواع الإذلال والتعذيب .

ولقد كـان الحجـاج بن يوسف من قسـاة القلوب الذين اشتـهروا بالظلم والجبروت، ومع ذلك جهز تلك الجيوش لإنقاذ أولئك المسلمين

من أيدي أعـدائهم، لأن المـسلمين في ذلك الزمن لوعـيـهم الديني يدركـون أن إذلال الكفـار للمسلـمين يعتـبـر إهانة للإسـلام نفسـه، فالمسـارعة لإنقـاذ المسلمين تعـتبر إعـزازاً للإسلام بالـدرجة الأولى، ورحمة بالمسلمين بالدرجة الثانية .

هذا ولقد توَّج ابن القاسم أعماله في فتح مدينة الديبل بالعفو عن المشـرف على السجن لمَّا شـهد السـجناء المسلمـون بأنه كان يعـاملهم معاملة كريمة، فعفا عنه ابن القاسم من باب مبادلة الإحسان بالإحسان، بالرغم من أن أوامر الحـجاج تنص على قتله هو وأمثـاله، إضافة إلى أنه فوض إليه الإشراف على الأمور المالية في مدينة الديبل.

وكـان من نتيـجـة هذه المعـاملة الكريمة من ابن القـاسم أن ذلك السجَّان الدَّيبـلي أعلن إسلامه (١)، وهذا مثل من الأمثلـة الكثيرة في تاريخ المسلمين الأوائل التي يكون فـيها إسـلام الكفار بسبب مـعاملة المسلمين الكريمة لهم .

وإن ماقام به ابن القاسم من تفويض الأمور المالية إلى ذلك الرجل يعتبر لفتة إدارية عالية، تدلنا علـى ماكان يتمتع به ابن القاسم من خبرة دقيـقة في معادن الرجـال، فالرجل الذي كان يعـامل أعداءه في الدين مـعاملة كـريمة في السـجن وهو قادر علـى ضد ذلك، ثم يسـارع إلى اعتناق دين اعـدائه لما أدرك أحقيته وسـموه جدير بأن تُسند إليـه مَهامُّ الأمور.

---

(١) موسـوعة التاريخ الإسـلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٧١ - ١٧٢ ، فـتوح البلدان ٦١٣ - ٦١٤ .

ووقفة أخيـرة في هذه النقطه تدلنا على تمتع القادة المسلمين آنذاك بحرية الـتصرف، انطلاقـا من مبـدإ « يرى الشاهد مالايـرى الغائب» فالحجاج قد أمر بقـتل المقاتلين والمشرفين على سجن المسلمين، ولكن هذا السـجان قـد شـفع له كريم مـعـاملته للمـسلمين في السـجن، فالاجتهاد وارد في الحكم في القضايا من منطلق دراسة الواقع .

فـتـح مدينة النِّيرون :

لما انتهى محـمد بن القاسم من فتح مدينـة الديبل اتجه إلى مدينة النيرون [حيدر أباد حاليًا] ونزل فـي مواضع من ضواحيها ولم يكن نهـر السند يمر به فـضـاق الجنود من العطش حـتى أمطرت السـمـاء وامتلأت الخزانات بالمياه وشرب جنود الإسلام وحمدوا الله تعالى .

وهكذا قـيض الله جل وعلا ذلك المطـر لإنقاذ المسلمين وتقـوية قلوبهم حتى يواجهوا أعداءهم بـقوة ونشاط ، وهذا مثل من كون الله تعالى مع أوليـائه بنصره ومعـونته لما يريد بهم من إظهـار دينه وإعلاء كلمته في الأرض .

ووصل ابن القاسم بجـيشه تلك المدينة بينما وصلت المؤن الـثقيلة التي بعث بها مع بعض الجنود على السفن في نهر ساكره .

وحاصر المسلمـون تلك المدينة عدة أيام وكان واليها غـائبًا ، فلما قدم أبرز كتاب صلح بينه وبين الحجاج وفتح المدينة للمسلمين .

ثم حضر بهندركن والي المدينة إلى محمد بن القاسم ومعه الهدايا والتحف فأكرمـه ابن القاسم واتَّخذه مستشارًا وولَّـى على مدينته واليًا مسلمًا (١).

---

(١) الكامل في التاريخ٤/ ١١١، موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب١/ ١٧٣ .

وهكذا كان ابن القاسم يعامل المسالمين معـاملة كريمة ويستفيد من خبرة من يظهر النصح للمسلمين مع عـدم الاعتماد عليه في القرارات النهائية، وتلك منقبة من مناقبه العظيمة التي جعلته يفتح ذلك الإقليم الواسع في وقت قصير، مع مـاقام به من ترسيخ أقدام المسلمين هناك وبث الإسلام بين أبناء البلاد .

فتح إقليم سيوستان :

ثم اتجه ابن القاسم إلى إقليم سيوسـتان وبصحبته بهندركن الوالي النيروني وكان له أتباع بوذيون في ذلك الإقليم فاجـتمعوا به وأخبروه بأنهم موافقـون على ماجاء في رسالة الحجـاج إليه من قوله « كل من طلب الأمان له الأمان » ولكن حاكم ذلك الإقليم رفض الصلح وهو بَجْـهـرا بن جندر ابن عم الملك داهر ملك السنـد، فحـاصـرهم ابن القاسم وصوَّب المجانيق نحو مدينتهم لمدة أسبوع ليلاً ونهارًا حتى شعر السكان بالضـيق والخوف فتـوقفوا عن القـتال ، ولما علم الأمـير بأن السكان قد يئسوا من المقاومة هرب في المسـاء من الباب الشمالي وعبر النهر متجهًا إلى منطقة البودهية .

وبعد هروب الحاكم دخل محمد بن القاسم مـدينة سيوستان فاتحًا وأعلن أهلهـا البوذيون منهـم الطاعة وعـيَّن نوابًا من أماكن مـتعـددة وجمع الغنائم ماعدا مايخص البوذيين الذين أعلنوا الطاعة .

ومما هو جدير بالذكـر إسلام جماعـة كبيـرة من البوذيين على يد محمد بن القاسم من أهل جنه في سيوسـتان ، وقصة إسلامهم مؤثرة حيث أرسلوا مندوبًا لهم إلى معسكر المسلمـين لمعرفة أخبارهم ،وحين

وصل كان جنود الإسلام قد وقفوا في الصلاة في خشوع مهيب خلف إمامهم محمد بن القاسم فاندهش لمنظرهم ، وأخبر قومه بذلك ، فقالوا: إذا كان العرب هكذا يعبدون الرب ويطيعونه ولايتركون صلاتهم حتى في أخطر المواقف وهم بهذا الشكل من الاجتماع فلايمكن لنا مقاومتهم وهذا دليل على صحة دينهم .

واختاروا وفدًا من زعمائهم أرسلوهم إلى ابن القاسم وعرضوا له طاعتهم وأُعجبوا بأخلاقه ومعاملته فأعلنوا إسلامهم ، ثم عادوا لقومهم فدعوهم إلى الإسلام فأسلموا جميعًا (١) .

وهكذا رأينا عظمة الصلاة وبركتها وتأثيرها القوي على مشاعر من يشاهد لأول مرة المصلين وهم يصلون ، وخاصة إذا كانوا يصلون جماعة .

وإن من أهم عوامل التأثير في الصلاة ماتشتمل عليه من الخشوع القلبي القائم على حضور القلب مع الله تعالى، والذي يترتب عليه سكون الجوارح وخضوعها لله جل وعلا ، مِنْ وَضْع اليد على اليد حال القيام والنظر الدائم إلى موضع السجود وعدم تحريك الأعضاء إلا بموجب حركات الصلاة .

وإن أبلغ مافي الصلاة من التأثير قيام الجماعة من المسلمين في صفوف منتظمة متساوية خلف إمام واحد، وتزيد عظمة هذه الجماعة ومنظرها المهيب حين يتضخم العدد فيصل إلى الألوف من المصلين كما هو الحال في تجمعات الجيوش وتجمعات المدن الكبيرة .

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٧٤ - ١٧٦ .

وإن ممايزيد في إعجاب الأعداء كما هو مذكور في الخبر كون المسلمين لايتنازلون عن صلاتهم الجماعية حتى في أحرج المواقف وهم واقفون أمام أعدائهم ،وهذا يبين لنا حكمة من حِكَم شرعية صلاة الجماعة .

المعركة الفاصلة مع ملك السند :

استمر محمد بن القاسم يتقدم ويفتح المدن صلحا في غالب الأمر حتى وصل إلى جيش الملك داهر وكان بينهما نهر السند ، فأرسل إليه ابن القاسم رسولا يسمى الشامي ومعه مترجم وهو قبلة بن مهترائج الذي كان مشرفًا على سجن الديبل وأسلم على يد محمد بن القاسم، فلما دخل على ملك السند لم يسجد له تعظيمًا حسب عادة أهل السند مع ملكهم، وكان الملك داهر يعرفه فغضب وقال : لو لم تكن رسولا لقتلتك ، فقال هذا الديبلي : نعم إنني الآن مسلم ولايصح في الإسلام أن يسجد إنسان لإنسان وإنما السجود لله رب العالمين، وإن قتلتني فإن المسلمين ينتقمون لي .

ثم ذكر حديث رسول المسلمين الشامي للملك حيث ذكر له رسالة ابن القاسم إليه بتخييره بين أن يعبر النهر إلى المسلمين أو يتركهم يعبرون إليه بعد أن رفض الدخول في الإسلام ودَفْع الجزية[1] .

وهكذا رأينا موقفًا عاليًا من ذلك الرجل الدَّيبلي الذي أسلم حديثًا حيث تفقه في الدين سريعًا فأدرك التقاليد الجاهلية التي تتعارض مع الإسلام وفهم توحيد الله سبحانه للعبادة والتعظيم فلم يسجد لذلك الملك كما يصنع قومه الكفار ، ثم أظهر اعتزازه بانتمائه

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٨٠ ، فتوح البلدان ٦١٤ .

للمسلمين حيث أظهر التحدي لذلك الملك ببيان عزة المسلم وكرامته عند إخوانه حتى لو كان حديث عهد بالإسلام ، هذه العزة التي من مظاهرها غضب المسلمين لإخوانهم وانتقامهم ممن اعتدى عليهم مهما كلفهم ذلك من أموال ومتاعب .

وهكذا كان المسلم آنذاك يظهر إسلامه بشخصية عالية وعزة متناهية حتى وهو بين أحضان الكفار وعند ملوكهم، وماذاك إلا لقوة المسلمين وظهور دولتهم على دول الباطل وعدم خضوعهم لأعداء الإسلام .

ولقد كان لهذه الصور القوية التي أبرزت عظمة الإسلام في نفوس المسلمين وقوة تأثيره على سلوكهم الأثر البالغ في جذب الناس إلى اعتناق هذا الدين الحنيف لما يَشْعر به المنتمي إليه من عزة وحصانة في الدنيا ومآل سعيد خالد في الحياة الآخرة .

وقد استشار ملك السند وزيره سياكر فنصحه بالموافقة على عبور المسلمين مسوِّغًا ذلك بانقطاع المُؤن والإمدادات عن المسلمين إذا عبروا النهر فيسهل القضاء عليهم ، وكان في جيش داهر قوم من العرب من العُلافيِّين بقيادة محمد العلافي ، وهم عرب تمردوا على دولة الإسلام ولحقوا بملك السند فكانوا يحاربون معه المسلمين، فاستشار داهر محمد العلافي فأشار بعدم تمكين المسلمين من العبور وعلل ذلك بأنهم أشداء في الحرب وأن لهم هدفين في القتال إما النصر وإما الموت ، وحيث إنهم لايفرون فمن الصعب على أعدائهم هزيمتهم ، كما أشار بتسليط اللصوص عليهم لنهب الغلات والمواشي والعلف من كل مكان

قريب من المسلمين حتى ينتشر بينهم الجوع والمرض فيتفرقوا ويسهل عند ذلك قتالهم وهزيمتهم .

وقد تحيَّرَ الملك بين الرأيين فقرر أن يترك الخيار للمسلمين في ذلك، ووقف بجيشه على الشاطئ الشرقي للنهر، وقرر محمد بن القاسم عبور النهر ، وفي هذا الوقت وصل إليه خطابان من الحجاج يأمره فيهما بالتجلد والشجاعة وسرعة العبور من موضع مناسب، ويطلب منه إرسال خريطة للنهر لدراستها وإبداء الرأي .

وفي الوقت نفسه استعد الملك داهر فوقف بجيشه على الشاطئ الشرقي من النهر وأمر بعض قواده بالمرابطة بالسفن في الجانب الذي يسهل منه العبور ليُلجئ المسلمين إلى العبور من المواضع الخطرة، وكان يريد القضاء عليهم وهم في حال العبور .

وقد توقف ابن القاسم عن العبور لمواجهة خطط ملك السند ولأن منطقة سيوسان انتقضت عليه فوجه أحد قادته بجيش لإعادة فتحها حتى يكون الطريق من خلف الجيش الإسلامي في أمان .

ونظرًا لتأخر ابن القاسم في العبور مايقرب من خمسين يومًا ولِماَ قامت به العصابات من سحب المُؤَن والأعلاف والأغذية من حول المسلمين فقد أصيبت خيول المسلمين بالمرض .

وقد اغتنم داهر ذلك الوضع السيء بالنسبة للمسلمين فأرسل إلى ابن القاسم يعرض عليه تقديم مساعدة غذائية في مقابل أن ينسحب المسلمون إلى الخلف ، ولكن ابن القاسم رفض ذلك بشدة وكرر

قولته المشهــورة بأنه لن يترك أرض السند قبل أن يرسل رأس داهر إلى الحجاج في العراق .

وهكذا كان قادة المسلمين وجنودهم يتمتعون بالصبر على الشدائد ومصابرة الأعــداء حتى ينزل عليهم الفرج من الله تــعالى ، ولقد نال المسلمون بالصبر الطويل نتائج معارك طالت مدتها واكتنفتها الأهوال، وكان أبرز الفوارق بينهم وبين أعدائهم أنهم أكــثر منهم صبرا على حر القتال واحتمال الشدائد .

وجــاء الفرج من الله تعــالى حــيث علم الحجــاج بن يوسف بما وصلت إليه حال الجيش هناك فأسرع بــإرسال ألفين من الخيول العربية الأصــيلة والمواد الغــذائيــة والخلّ المجفف فــي القطن المحلوج، وذلك للطعام والدواء .

كما أن الحجاج قام برفعٍ معنوية محمد بن القاسم حتى لايضعف أمام تلك الأهوال حــيث عيّنه واليا على بلاد السند كلهــا وفوض إليه الأمور ليتصرف كيــف شاء ، ولكنه في الوقت نفسه حذره من الصلح وشجعه على عبور النهر والقــضاء على داهر مهما كلفه ذلك، وأشار عليه بأن يعبر النهر من منطقة « بت » حيث يقل العرض والماء ويسهل العبور ، وذلك بعــد دراسته لخارطة البلاد، ونصحه أيضًــا ببناء جسر على الماء من القوارب لكسب الوقت في العبور ومجابهة الأخطار.

وهذا مــوقف يذكــر للحجــاج بن يوسف حــيث كــان وراء ذلك الانتصار الباهر في بلاد السند وفي غيرها من بلاد المشرق .

هذا وقد رتب محمد بن القاسم الخطط الحكيمة لعبور النهر حيث

كان يدرك جيداً أن خطة الملك داهر أن يقضي على جيشه أثناء العبور، فأرسل فرقة من ستمائة فارس بقيادة سليمان بن نبهان القرشي نحو الحدود الغربية لمدينة راور حتى يمنع الأمير جيسيه بن الملك داهر من التحرك وقت عبور الجيش، وأرسل فرقة من خمسمائة فارس لمراقبة طريق منطقة كنداره لمنع وصول الإمدادات لجيش داهر ، وأمر فرقة ثالثة بقيادة كبار التكاكرة من أهل المنطقة للوقوف في جزيرة بَتّ للدفاع ، وفرقة إلى جيبور قرب راور لمواجهة جيش داهر في خليج يقع بين روار وجيبور ، وأمر بَهَنْدركن الحاكم النيروني الذي اتخذه مستشاراً له بجمع الغلة وتوفير العلف للجيش استعداداً للعبور .

بعد هذا الاحتياط الكافي قرر المسير نحو الشاطئ ثم العبور وأرسل أمام الجيش فِرَقًا استطلاعية ، ووصل بجيشه إلى الشاطئ بأمان فأمر بإحضار المراكب ليعمل منها جسراً يتم العبور عليه وكان قد أمر بتعبئتها بالرمال والأحجار لتثبت في النهر ثم أمر بتسميرها بالألواح الخشبية حتى تم عمل الجسر ، ثم أمر الفِرقَ الفدائية بالتوجه بسفنهم إلى جهات متعددة لحماية الجيش أثناء العبور ، وزحف الجيش الإسلامي فوق المراكب ليلا بإتقان وسرعة وحذر حتى تم عبورهم إلى الشاطئ الشرقي .

كل ذلك والملك داهر يغط في نومه في عاصمته ، وكان قد انشغل باللهو والصيد ولعب الشطرنج اعتماداً على نجاح خططه التي دبَّرها لإبادة المسلمين أثناء محاولات العبور التي يبدو أنها كانت صعبة للغاية لولا عناية الله تعالى ثم التدابير المحكمة التي خطط لها ابن القاسم ثم نفذها بتوجيه من الحجاج بن يوسف .

وما أن وصل المسلمون إلى الشاطئ الشرقي حتى بادروا بالهجوم ليلا على قوات الملك داهر المرابطة فانزعجوا وانهزموا، وهرب قواد الملك إلى العاصمة وأخبروا الملك داهرًا بالخبر فانزعج لذلك وكاد يفقد وعيه(١).

وهكذا نجحت خطط المسلمين بقيادة أميرهم الشاب محمد بن القاسم الثقفي لاعتمادهم قبل كل شيء على الله تعالى وشعورهم القوي بالمسئولية المنوطة بهم وانصرافهم إلى الجد في كل أمورهم واغتنام كل الفرص المتاحة لهم ، بينما فشلت خطط الملك داهر التي اعتمد فيها على مجرد الرأي والتدبير والخبرة الحربية ، وقد حمله بُعده عن الله تعالى واعتماده الكامل على خططه . . حمله ذلك على الغرور والغفلة وإضاعة الفرص المناسبة حتى داهمه الجيش الإسلامي وهو في لهوه وغفلته .

ولما علم ملك السند داهر بما حل بذلك الجيش بعث جيشًا آخر بقيادة محمد العلافي وهو الذي سبق أن ذكرنا أنه وجماعة معه من العرب المتمردين على دولة الإسلام ، فبعثه ملك السند لخبرته بقتال العرب، ولكنه ماأن واجه جيش المسلمين حتى رموه بالسباب وعيروه بالخيانه حتى انهزم وتقهقر إلى الوراء .

فلما علم بذلك ملك السند أرسل جيشًا كبيرًا بقيادة ابنه الأمير جيسِيه فخرج بجيشه ومعه عدد من الفيله المقاتلة ، ووجه له ابن

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب١/ ١٨١-١٨٦، فتوح البلدان/ ٦١٥، الكامل في التاريخ ٤/ ١١١ .

القاسم جـيشًا بقيـادة عبد الله بن علي الثـقفي الذي حارب بشجـاعة وقتل كـثيرًا من جـنود العدو وقام بهـجوم خاطف علـى قلب الجيش السندي وحاصـر القواد وقتل معـظمهم ، فهرب الأمـير جيسِـيه من المعركة وانتصر جيش الإسلام .

ولما علم الأمير « راسل البوذي» أحد كـبار القادة والحاكم الجديد لمنطقة بَتّ أن الأمير جيسيه انهزم وفر هاربًا أدرك أن الغلبة للمسلمين، فأرسل مبعوثًا إلى محمـد بن القاسم بأنه يريد المبايعة والانضمام إليه، وطلب منه أن يرسل جيشًـا صغيرًا لأخذه أسيرًا إليـه في أثناء توجهه إلى الملك داهر حـتى لايلومه قـومه ، فخـرج راسل من المدينة وولّى والده عليها وطلب منه أن يستسلـم للمسلمين إن قدموا عليه، وأرسل محمد بن القاسم جيشًـا من الفرسان وأسروا راسل فعاهد على الولاء والعمل تحت راية الإسلام .

وهكذا استسلم حاكم هذه الولاية وعاهد على العمل مع المسلمين كما فعل ذلك قبـله حاكم الولاية السابق وحكام آخرون، وهي ظاهرة غريبة لم تقع بهـذا الشكل في سائر الفتوحـات العالمية ، وهذا راجع بالدرجـة الأولى إلى مـاكان يتـمـتع به حكام المسلمين وأمـراؤهم في الغالـب من العـدالة والمواساة لمن تحت أيديهم من المسئولـين والرعية، وكان ابن القاسم مثـالا لهذه الأخلاق الكريمة فاجتذب بسـمو أخلاقه والتـزامه بآداب الإسـلام أولئك الأمراء ، واسـتفـاد من خبـرتهم في بلادهم كثيرًا حيث ضمهم إلى جيشه وجعلهم مستشارين .

وأمر آخـر لعله كان دافـعًا لهذا الـتوجه بهـذا الشكل الظاهر من

أولئك الأمراء ، وهو كونهم جميعًا يعتنقون الديانة البوذية بينما كان داهر برهمي المذهب ، وكان البراهمة يعيشون في كبر وخيلاء ويحتقرون الناس من حولهم ويعتقدون أنهم آلهة وأن الناس عبيد لهم، فولَّد ذلك في نفوس الناس كراهية لهم وحقدًا عليهم، فلما سنحت الفرصة للأمراء البوذيين في التخلص منهم اغتنموا ذلك ورأوا في المسلمين خير بديل عنهم لما رأوا فيهم السماحة والعدل والتواضع على خلاف ما ألفوه من البراهمة .

واغتنم ابن القاسم هذه الفرصة فمنح هؤلاء ثقة كبيرة وأكرمهم وأشعرهم بوجودهم كأمراء لهم مكانتهم بين قومهم فأفاد الجهاد الإسلامي فائدة كبرى بكسب رأي هؤلاء وخبرتهم ومساندتهم جيش المسلمين بالجنود والعتاد الحربي .

بعد ذلك استعد ابن القاسم لقتال الملك داهر ، فانتقل إلى موضع يقال له نارائي ومعه الأمير راسل والأمير موكه ،وكان الملك داهر يعسكر في موضع قريب منه يقال له قاجيجاق وكانت بينهما بحيرة ، وقد أشار راسل بضرورة عبور البحيرة وأحضر القوارب، ونقل عليها الجنود في ظلام الليل إلى داخل خليج هناك، ثم تقدموا قليلا نحو مدينة جيبور حتى وصلوا عند نهر دوهاواه الذي تقع عليه قرى كثيرة ، فعسكروا هناك ليسهل القيام بالهجوم على الملك داهر من الأمام والخلف .

وعلم داهر بوصول المسلمين إلى جيبور فترك أسرته في قلعة راور وتحرك بجيشه ووقف على بعد فرسخ من المسلمين،وتقدم محمد بن

القاسم ووقف علـى بعد نصف فرسخ ، واستعد الجـيشـان للحرب المصيرية.

وبدأت الحرب بتقابل فرق من الجيشين لمدة أسبوع ، بدأت بعدها الحرب الشاملة التي انتهت بعد ثلاثة أيام بانتصار المسلمين وكان النصر في جميع تلك اللقاءات لجيش المسلمين .

ولما رأى الملك داهر تلك النتائج السـيئة لجيوشــه قرر أن يخوض المعركة النهائية بنفسه ، فجمع قواته كلها التي بلغت مائة وعشرين ألفا يقودها خمسة آلاف فارس من أبناء الأمراء والقواد المشهورين، ومعهم عشـرة آلاف فارس بكامل تجهيـزهم وثلاثون ألفًا من المشاة المجـهزين بالدروع والسهام والرماح إلى جانب عشرات الألوف من أفراد القبائل المختلفة، يتقـدمهم مائة من الفيلة الرهيبة التي كـانت أخطر مايواجهه المسلمون من سلاح الأعداء .

ونظَّم ابن القـاسم جيـشه فـجعل على المقـدمة عطاء بن مـالك القيسـي مع جيشه من الفرسـان ، وجعل جهم بن زحر البـجعي مع جيشه من الفرسان على الميمنة ، وجعل ذكوان بن علوان البكري على الميـسرة ونبـاتة بن حنظلة الكلابي في المؤخـرة ، وبقي هو في القلب ومعــه محرز بن ثابت وبعض القـواد من العرب والسند ، وأعلن في الجيش بأنه إذا قُتل في الميدان فالقيادة العليا لمحرز بن ثابت .

وبدأت المعركة فتقدم محرز بن ثابت بفـرقته من القلب فاستشهد

وتقهقرت فرقته، وكذلك تقدمت فرقتان فانهزمتا بسبب الهجوم الشرس من الفيلة (١).

هذا وقبل الحديث عن المعركة فإنه لابد من الإشادة بموقف محرز ابن ثابت الذي ولاه محمد بن القاسم قيادة الجيش من بعده فيما لو استشهد.

وإذا نظرنا إلى الموضوع من الناحية الدنيوية التي يتسابق الناس فيها على التسلق نحو درجات المجد والشهرة ومايتبع ذلك من الحصول على الأموال والتمتع بطيبات الحياة .. إذا نظرنا إلى ذلك فإن الحال تقتضي أن يحاول هذا القائد البديل أن يحمي نفسه من بأس الأعداء بمجموعة من الحراس حتى يُبقي على حياته ليتبوأ ذلك المنصب المرتقب، ولكن المسلمين الصادقين من أمثال محرز بن ثابت تهون عليهم أنفسهم وحياتهم الدنيا بما فيها من مجد ورفعة في سبيل إعزاز الدين وإعلاء كلمة الله تعالى ، فلذلك كان أول مغوار فدى أمته بنفسه حتى خرَّ صريعا تحت أقدام الفيلة وخيول الأعداء ، فلله دَرُّهم ماأكبر همتهم وما أبعد غايتهم !

ولما رأى محمد بن القاسم ما أصاب بعض المسلمين من الانهزام والتقهقر أمام جيش الفيلة ناداهم بأعلى صوته وحثهم على الصبر والجهاد فقاموا بحملة قوية على الجيش السندي وقتلوا تسعة من الفيلة

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٨٧ - ١٩٠، فتوح البلدان/ ٦١٥ .

فتشجعوا بذلك ، وأخذ الكفار يتقهقرون إلى الخلف حتى توقف القتال عند المساء .

وانتهى اليوم الأول من هذه المعركة الكبرى ، وقد أبلى المسلمون بلاء حسنا وأخذوا فيه خبرة كافية عن سلاح الأعداء وقوتهم وتخطيطهم الحربي .

ولقد كان لابن القاسم موقف يذكر حيث كان رابط الجأش ثابت الجنان بالرغم من صغر سنه ، فلم يتزعزع حينما رأى المسلمين يتفرقون ويتضعضعون أمام الفيلة ، بل ثبت وناداهم بقوة ليجتمعوا وليبذلوا طاقتهم في قتال عدوهم .

وإنَّ توفر هذه المقدرة الفائقة عند ابن القاسم . . من الشجاعة الفائقة ودقة التخطيط وحسن التدبير والثبات عند المواقف الصعبة مع أنه كان في سن الشباب دليل واضح على تفوق المسلمين في مجال التربية ، وأنهم كانوا يهتمون بتأهيل أبنائهم منذ الصغر للمجالات التي يَنشُدون تفوقهم فيها ، إذ أن مثل هذه المقدرة لاتتوفر في سن مبكرة بغير الإعداد التربوي الجاد المنظم .

ولقد كان جديرًا بقول الشاعر فيه :

إن السماحة والمروءة والندى   لمحمد بن القاسم بن محمد
ساس الجيوش لسبع عشرة حجة[1]   ياقُرْبَ ذلك سُؤددًا من مولد

كان هذا اليوم الأول من المعركة يوافق يوم الإربعاء التاسع من

(١) أي لسبع عشرة سنة ، وذلك محمول على ابتداء أمر إمارته وقيادته حيث تولى إمارة خراسان عام ثلاثة وثمانين للهجرة .

رمضان المبارك من عام ثلاثة وتسعين للهجرة كما ذكر المؤرخون .

وفي يوم الخميس الموافق للعاشر من رمضان استُؤنفت المعركة بين الطرفين ، وقد حصل تغيير لبعض مواقع القادة من الجانبين حسبما تقتضيه ظروف المعركة .

ولقد كان مما خرج به الأعداء في اليوم الأول أنهم أدركوا خطورة سلاح الفيلة على المسلمين فعزموا على تركيز هجومهم بالفيلة في اليوم الثاني ، كما أن المسلمين أدركوا ذلك فعزموا على توجيه اهتمامهم في القضاء على تلك الفيلة ، وكان مع المسلمين ثلاثة منجنيقات يحركها ويرمي بها تسعمائة من الرماة ، فقسم ابن القاسم هؤلاء إلى ثلاث فرق وأمرهم بأن يشعلوا النيران وأن يوجهوا قذائفهم المشتعلة بالنفط نحو الفيلة والمجموعات التي تقودها .

وبدأ المسلمون يومهم ذلك بعد صلاة الفجر بسماع خطبة حماسية ألقاها قائد المسلمين الشاب، حثهم فيها على النصر والثبات ومواصلة القتال مهما كانت الظروف ، وذكَّرهم بالله تعالى ومأعده لعباده المؤمنين الصابرين .

وبدأت المعركة بهجوم فرقة من مائتي فارس من المسلمين بقيادة نبهان أبو فقيه القشيري ، وتقدم لها فرقة من السند فانهزموا أمام المسلمين وقُتل كثير منهم ، وكانت بداية طيبة رفعت معنوية المسلمين.

وتلا ذلك اشتباك بين فرق من الجيشين ، وبدأ الرماة بالقذف بالسهام المشتعلة بالنفط من المجانيق على قلب الجيش السندي الذي

تصدَّرتْه الفيلة ، فحصل للسند فزع واضطراب ، وتفرَّقَ جمعُهم قليلا حتى تمكن المسلمون من الدخول في جيشهم .

وكان أحـد قادة المسلمين وهو « الشجـاع الحبشي » قـد أقسم أن لايذوق الطعام إلا إذا هجم على فيل داهر ، وكـان قائد الفيلة، وهو فيل ضخم أبيض اللون ، فربط الحبشـي عيني فرسه حتى لايهيج من الفيلة وهجم على الفـيل الأبيض وجرحه ، فهاج وتأثـرت بذلك بقية الفـيلة وأخذت تصـيح وتميل شـمالا ويمينًا وأحـدثت خللا في توازن الجيش، ولكن داهر استطاع أن يرمي الحَبَشي بسـهم قاتل فوقع شهيدًا رحمه الله تعالى [1] .

وهكذا قام هذا الفـدائي المسلم بعمل يقربه من الله تعـالى وأقدم على عـمل يرجو فـيه الشـهادة والإثخـان في العدو ونصْـر المسلمين فتحقق له ماأراد .

وهذا من النماذج الكثيرة التي لاتتوفر لدى غير المسلمين إلا بنسبة قليلة وبدافع من تعويض مادي كبير أو منصب رفـيع يرجو فيه صاحبه أن يُحظَى بالنجـاة ليتمـتع بذلك العوض ، وهذا الرجـاء يُضعف من مقدرة الفدائي وإقدامه كثيرًا لأن الهمَّ الكبير الذي يستولي عليه هو أن يدافع عن نفسـه حتى يظفر بالحيـاة التي علَّق عليها الآمال السـعيدة، بينما يندفع المسلم بكل طاقته في الهجـوم لعله يظفر بالشهادة ليُحظَى بالحيـاة السعيدة في الآخـرة ، حيث يعلق عليـها كل آماله السعـيدة،

---

(١) مـوسـوعـة التـاريخ الإسـلامي لبـلاد السند والبـنجـاب ١/ ١٩٢-١٩٤، فـتـوح البلدان/ ٦١٥ .

وفرق كبير بين من يقاتل ليُقْتَل وبين من يقاتل ليبقَى على قيد الحياة.

وهكذا كانت جيوش المسلمين في ذلك العصر الذهبي إلى جانب كونها تضم القادة الأكفاء الذين يقدِّرون الكفاءات ويستشيرون أهل الرأي ويعيشون قضيتهم بكل أحاسيسهم فإنها كانت تضم الجنود المخلصين الذين جعلوا قضيتهم الكبرى هي نصر الإسلام والمسلمين وإغاظة الأعداء ودحر الجبابرة والظالمين .

وفي أثناء القتال توجهت طائفة من قواد السند وجنودهم نحو محمد بن القاسم طالبين الأمان فأعطاهم الأمان وأعلنوا إسلامهم أمامه ، وكانت هذه أول مجموعة كبيرة من أتباع الديانة البرهمية من قواد الملك داهر وجنوده تدخل الإسلام برغبتها في أيام الفتوحات، وقد عرض هؤلاء القواد والجند على محمد بن القاسم خطة عسكرية ليثبتوا صحة إيمانهم وولائهم ، بأن يأذن لهم أن يقوموا بمهاجمة مؤخرة جيش داهر على غفلة على أن يقوم الجيش الإسلامي في نفس الوقت بهجوم شامل من الأمام ، ووافق محمد بن القاسم على الخطة، وجعل مروان بن أشحم اليمني وتميم بن زيد القيسي عليهم، فَفَاجأُوْا العدو بالهجوم الخاطف العنيف من الخلف، وكذلك من الأمام ، فأذهلوهم بذلك وقُتل كثير من جيشهم فهاجوا وحميت المعركة (١) .

وهذا مثل من أمثلة كثيرة تدل على عزة المسلمين وقوة تأثيرهم

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٩٣ -١٩٤، فتوح البلدان/ ٦١٥ .

على أعدائهم ، فإن هؤلاء انفصلوا عن جيش قومهم ، ولم يكتفوا بمجرد الانضمام إلى جيش المسلمين بل أعلنوا إسلامهم وبرهنوا على صحة عقيدتهم بالخطة الحربية الرائعة التي اقترحوها على قائد المسلمين، وهذا دليل واضح على أن الدافع لهم كان إعجابهم بالإسلام وصدق توجههم نحوه، إذ لو كان الدافع مجرد عداء بينهم وبين قومهم لاكتفوا باللجوء إلى جيش المسلمين أو إعلان الانضمام إليهم في القتال ولم يتخطوا ذلك إلى التخلي عن دينهم والدخول في دين الإسلام .

وكان من آثار ثبات المسلمين الرائع وماقام به بعضهم من مواقف فدائية ، وماتم من إسلام بعض أهل السند وانضمامهم إلى جيش المسلمين . . كان من آثار ذلك أن جيش السند أخَذَتْهم الحمية فشدَّدوا هجومهم على المسلمين من كل جانب ، وحملوا حملة جماعية في محاولة مستميتة لكسب نهاية المعركة ، وكان لتلك الحملة المركزة أثر في اضطراب جيش المسلمين بعض الوقت ، فلما رأى ذلك قائد المسلمين محمد بن القاسم الثقفي نادى أبطال المسلمين وقادتهم بأسمائهم حتى اجتمعوا ثم علت أصواتهم بالتكبير حتى ملأت الآفاق وكانت على الأعداء كالصواعق المرسلة ففزع الجيش السندي وتحيروا ، وحمل عليهم المسلمون حملة صادقة حتى قتلوا عدداً كبيراً من جنود العدو وقادتهم وبعض الفيلة حتى لم يبق مع داهر من فرسانه من أبناء الأمراء والقادة الكبار إلا ألفًا من خمسة آلاف ، وهو دليل على قوة إثخان المسلمين بجيش عدوهم .

وفي الوقت الذي اشتدت فيه حملة المسلمين أمر ابن القاسم رماة المنجنيقات بأن يصَوِّبوا سهام النار المشتعلة بالنفط نحو هودجٍ فيل داهر، فأصيب الهودج بالحريق، وعطش الفيل من الحرارة فاتّجه به داهر نحو النهر ليسقيه وليطفئ النار ، وكان حوله بعض القادة لحمايته، فطاردهم المسلمون وأمطروهم بوابل من السهام ثم اشتبكوا معهم في قتال شديد ، ونزل داهر من فيله وقاتل حتى قتله عمرو بن خالد الكلابي، وأسرع بعض قادة السند فأخفوا جثته في خليج راور، ثم توقف القتال عند المساء بانتصار حاسم للمسلمين (١) .

فتح مدينة راور :

بعد انتهاء المعركة الفاصلة مع جيش السند ومقتل ملكهم داهر توجه المسلمون بقيادة محمد بن القاسم لفتح مدينة راور التي جرت حولها تلك المعركة الحاسمة ، وقد دخلها المسلمون إلا أن قلعتها بقيت محصنة بفرقة كبيرة من الجيش السندي وعلى رأسها الأمير جيسيه ولي العهد، وقد قرر جيسيه مواصلة القتال ، لكنه أخيراً قبل مشورة وزيره سياكر ومحمد العلافي بترك القلعة والسير إلى مدينة برهمناباد لقوة تحصينها ، وقررت زوجة الملك داهر « بائي » البقاء في القلعة مع النساء وفرقة من القادة والجيش للدفاع عنها .

وقد توجه محمد بن القاسم إلى القلعة فرفض أهلها التسليم، فأمر بضربها بالمنجنيقات ، وقسم جيشه قسمين : قسم يقاتل بالنهار

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٩٤ - ١٩٦، وانظر البداية والنهاية باختصار ٩/ ٩٢ .

بالسهام والرماح ، وقسم يقاتل بالليل بالقذائف الحجرية والنارية من المنجنيقات حتى هدمت الأبراج .

ولما رأت الملكة « بائي » أن المسلمين كادوا يفتحون القلعة جمعت الأميرات وأحرقن أنفسهن بالنار ليلحقن بأزواجهن تطبيقا للتقاليد الدينية السائدة بتلك البلاد .

وتم فتح القلعة ودخلها محمد بن القاسم وكان بها ستة آلاف جندي فأمر بقتلهم لرفضهم الاستسلام [١] .

وفي هذا الخبر مثل من تأثير العقائد الجاهلية على أصحابها بالهلاك والخسران في الدنيا والآخرة، فهؤلاء النسوة اللاتي أحرقن أنفسهن قد تعجلن عذاب النار في الدنيا ، ولو كان في اعتقادهن أنهن إن فعلن ذلك سيخلدن في الآخرة في نار جهنم وأنهن لو دخلن في الإسلام سيخلدن في جنات النعيم وينجون من عذاب النار لسارعن إلى الدخول في الإسلام .

فالعقل الرشيد السليم يهدي صاحبه إلى سعادة الدنيا والآخرة، فالذين دخلوا في الإسلام على يد ابن القاسم أصبحوا أمراء وقادة في بلادهم، وهذا من سعادة الدنيا، مع ماينتظرون من السعادة العظمى في الآخرة .

أما الذين وقفوا ضد دعوة الحق وحاربوا دعاته فقد باؤوا بالخسران والهلاك بأنواع القتل في الدنيا وسيبوؤون في الآخرة بالخلود في نار جهنم .

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ١٩٦/١ ، فتوح البلدان ٦١٦ .

فتح بهرور ودهليلة :

تحرك محمد بن القاسم من راور متوجها إلى برهمناباد التي تحصن بها جيسيه ، وكان عليه أن يفتح مدينتين محصنتين في طريقه إلى برهمناباد وهما بهرور ودهليلة .

فقد توجه أولا إلى مدينة بهرور وهي على بعد فرسخ من برهمناباد وفيها نحو خمسة عشر ألف جندي، فحاصرها وقاومه أهلها أياما فرماها المسلمون بالقذائف الحجرية والنارية من المنجنيقات حتى هدمت جدرانها وأبوابها وقتل معظم من فيها فدخلها محمد بن القاسم ، وولى عليها حاكما من المسلمين .

ثم سار إلى مدينة دهليلة وكان بها نحو ستة عشر ألف جندي فحارب أهلها بشدة حتى هرب حاكمها الأمير ديوراج وهو ابن عم داهر ومعه بعض سكانها في الليل نحو بلاد الهند ، فاستولى عليها المسلمون ، وولى عليها ابن القاسم نوبة بن هارون كما فوض إليه الإشراف على حركة السفن في تلك المنطقة (١) .

انضمام الوزير سياكر إلى المسلمين :

قبل فتح برهمناباد كان محمد بن القاسم قد بعث برسائل إلى الأمراء والوزراء يدعوهم فيها إلى الإسلام أو الطاعة مع ضمان الأمان لمن أجاب إلى ذلك، فلما علم بذلك « سياكر» وزير الملك داهر بعث رجلا إلى محمد بن القاسم وطلب منه الأمان ، فأعطاه ذلك، وحضر الوزير إليه ومعه بقية النسوة المسلمات اللاتي كن قد استغثن بالحجاج،

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ١/ ٢٠٠ - ٢٠١ .

فاستقبله محمد بن القاسم بكل تكريم وأهدى إليه هدايا ثمينة، وفوض إليه مهمة الوزارة وصار يستشيره في أمور الدولة والمهمات الحربية (١) .

هذا وإن ماحدث من انضمام هذا الوزير إلى جيش المسلمين مع رفعة منزلته في دولته وماحدث من انضمام بعض أمراء السند كما تقدم يدلنا على أهمية مكارم الأخلاق في سياسة الأمم، فقد كان محمد بن القاسم يتصف بالحكمة والعدالة وتقدير وجهاء البلاد، وإنزال الناس منازلهم ، ولقد كان لهذه الأخلاق الكريمة أثر في اجتذاب زعماء السند إلى الإسلام ، ولاينبغي لنا مع ذلك أن نغفل جانب القوة فإن ظهور قوة المسلمين يجعل زعماء البلاد يخضعون لعزتهم ويتيح الفرصة لعقولهم كي تفكر تفكيراً سليما في مستقبل أمرهم وأمر بلادهم ، وإذا كان هؤلاء الزعماء يرون أن قائد أعدائهم قد قرّب ساسة بلادهم الذين دخلوا معه وأسند إليهم المناصب المهمة فإن هؤلاء الزعماء لن يفقدوا بإسلامهم مناصبهم التي هي العائق الكبير بينهم وبين الإسلام ، والتي من أجلها يحملون جنودهم على حروب لايعلمون ماهو مصيرها .

فتح إقليم برهمناباد :

تولى الأمر بعد داهر ابنه جيسِيه وهو رجل سياسي شجاع ولذلك اهتم ابن القاسم بالقضاء عليه حتى لايعود إلى حكم بلاد السند وقد كان جيسيه أخذ بمشورة مستشاريه فانتقل إلى بلدة برهمناباد لوجود

---

(١) المرجع السابق ١/ ٢٠١ - ٢٠٢ .

حصن منيع فيـها فتحصن به وجمع إليه قـواته من أنحاء السند،وكان معه في ذلك التجمع ستة عـشر ألف قائد ومعهم عشرات الآلاف من الجنود.

وقد استـفاد قادة السند من تجاربهم مع المسلـمين في الحرب فرأوا أنه ليس بإمكانهم مهما بلغ عـددهم أن يقاوموا المسلمين في الصحراء وجها لوجه،فكان من تخطيطهـم أن يتحصنوا بذلك الحصن المنيع وأن يُخرجوا فرقـا كبيرة من الجيش لقتال المسلمين فـإذا انهزموا لَجَأُوا إلى الحصن.

ولما علم بذلك ابن القـاسم سار بجـيشـه حتى وصل قـرب تلك المدينة ، وأرسل رسولا إلى الأمـير جيسِيـه وأهالي برهمناباد يدعوهم إلى الإسلام أو الاستـسلام مع دفع الجزية وإلا فإنه سيـقاتلهم بشدة، فرفض جيسيه ذلك وقرر الحرب،وعندئـذ أمر محمد بن القاسم بحفر الخنادق، ووزع الجيش إلى فرق ووحدات استعداداً للقتال .

ثم بدأت المعارك فكانـت تخرج فرقـة كبيـرة من الجيش السندي مكونة من أربعين ألف جندي فيواجهها الجيش الإسلامي .

ثم تعود منهزمـة عند المساء إلى المدينة فتتحصن بهـا ، واستمرت المعارك على هذه الطريقة لمدة شهـرين ، ثم توقف القتال بين الطرفين لأن جيش السند قرر التحصن داخل المدينة .

ولقد ساءت حال الجيش الإسلامي لطول مدة الحصار وقلة الموارد الغذائية ، فأرسل ابن القاسم إلى الأميـر موكه بن بسايه حاكم منطقة بَتْ يستشيره في الأمر فأجاب بضرورة طلب قوات أخرى حتى يضطر الأمير جيسيه إلى الجلاء عن تلك المنطقة .

وقـد أخـذ ابن القـاسم بهـذا الرأي فكتب إلى نوابه من الأمـراء المسلمين على المناطق المفتوحة لِيَـمُدُّوْا الجيش الإسلامي بالعدد الكافي من الجنود ،ووفد عليه أولئك الأمراء وعلى رأسهم حاكم منطقة بتّ، فلما رأى الأمير جيسيه الجـيوش قادمةً لإمداد الجيش الإسلامي أصابه الرعب وانسحب من تلك المدينة بأسرته وذهب إلى منطقة جيتور على الحدود الهندية ،بينمـا افترق عنه محـمد العلافي العربي المتـمرد على دولة الإسلام الذي سـبق ذكره هو ومن معـه من العرب فاتجهـوا نحو بلاد كشمير .

وهكذا شـتت الله تعـالى شمل الأعـداء حـيث أوقع في قلوبهم الرعب وخالف بين آرائهم .

ومن المواقف التي نلاحظها في هذه المعارك مقدرة المسلمين الفائقة على الصبـر على الشدائد ومـصابرة الأعداء بالرغم من كـون الأعداء متحصنين في بلادهم المنيعة .

ومن تلك المواقف مـقدرة محـمد بن القـاسم العاليـة في كسب القلوب واكـتساب الأنصـار من غيـر المسلمين وعدم الاعـتداد بالرأي حيث استشار حاكم منطقة بتّ السندي وأخذ برأيه فكان ذلك سببًا في جلاء أعدائه وتـفرقهم ، وقد كان مـااشتهر به ابن القـاسم من العدل والحكمـة ودماثة الخلق سـببًا مـباشـرًا لذلك الولاء الذي تم بينه وبين حكام السند الذين خضعوا لحكم الإسلام .

وبعد خـروج جيسيـه من مدينة برهمناباد تم فتحـها وإخضاعـها لحكم المسلمين وقـام ابن القـاسم بتـنظيم أمـورها بما يتـفق مع حكم

الإسلام،وكان رحيمـا عادلا مع الأهالي الذين لايحملون السلاح ضد المسلمين .

وبعد أن تم فتح هذه المدينـة المحصنة بقي محمد بن القـاسم فترة من الزمن يقوم بتنظـيم أمور البلاد الإدارية فعـين حكاما من المسلمين العرب عـلى مناطق السند وكان اخـتياره لأولـئك الأمراء مبنيّـا على كفاءتهم الإدارية والحـربية مع النظر إلى احتيـاج البلاد لتلك الكفاءات حسب تنوعها ، ولذلك كـان ينقل بعض الأمراء إلى مناطق يرى أنها أحوج إليهم من مناطقهم الأولى[1] .

ولاشك أن توفـر الرجال الأكـفاء مـع ابن القاسم كـان له الأثر الكبيـر في نجاحه في أعـماله الحربـية ، وأعمـاله الإدارية إلى جانب مـاتحلى به هذا القائد مـن الحكمة ورجـاحة العـقل وحـسن التدبيـر فاستطاع بهـذه الأخلاق العالية أن يوجـه طاقات الرجال الأكفـاء معه بتعيين الرجل المناسب في المكان المناسب .

احتواء القبائل المتوحشة :

ولما انتهى من تنظيم أمور البلاد الإدارية تفـرغ للتفكير في القبائل المتوحـشة مثل قبـيلة الزط التي انصرف أفرادهـا للأعمال اللصوصـية حيث كانوا يخيـفون الآمنين ويقطعون السبل فاستـشار في أمرهم كلاً من الوزير السندي سيـاكر وموكـه حاكم منطقة بتّ فـذكرا له أن هذه القبائل لايمكن أن تخضع إلا بالقـوة وأن حكام السند كانوا يعاملونهم

(١) موسـوعة التاريخ الإسـلامي لبلاد السند والبنجاب١/ ٢٠٢ - ٢٠٥ ، فـتوح البلدان للبلاذري / ٦١٦ ، الكامل لابن الأثير ٤/ ١١٢ .

بالقسوة والإذلال وكانوا يلزمونهم بلباس معين حتى يحذر الناس منهم، وكانوا إذا قبضوا على أحدهم متلبسا بالسرقة حكموا عليه وعلى جميع أفراد أسرته بالحرق .

ولما سمع ذلك منهم ابن القاسم أخذ تلك القبائل مؤقتًا بالحزم، وأمَّر عليهم أفضل قادته وهو خريم بن عمرو المدني المعروف بالتقوى والشجاعة والسياسة ، ثم بدأ يضم أفراد هذه القبائل مع الجيوش الإسلامية ، فلما رأوا كرم الوفادة وحسن المعاملة ارتفع مستواهم الفكري ودخل كثير منهم في الإسلام وتحسنت أخلاق من بقي منهم، ولم يبق على الطباع الشرسة والوحشية إلا الذين اعتصموا بمناطقهم ولم يختلطوا مع المسلمين [١].

وهذا موقف يذكر لمحمد بن القاسم وقادته العظماء وعلى رأسهم خريم بن عمرو المدني الذي أوصى الحجاج محمد بن القاسم بأن يلازمه دائمًا لفضله ودهائه وشجاعته ، حيث تحوَّل كثير من أفراد هذه القبائل المتوحشة إلى أعلى المستويات الحضارية. فدخل أكثرهم في الإسلام، ومن لم يدخلوا فيه تأثروا بأخلاق المسلمين ومعاملتهم الكريمة ونبذوا ماكانوا ألفوه من العادات الرذيلة .

فتح مدينة أرور :

بعد أن قام محمد بن القاسم الثقفي بفتح برهمناباد الحصينة وبعد أن أخضع القبائل السندية المتمردة كتب إلى الحجاج بن يوسف بذلك فأمره بالتوجه نحو عاصمة السند أرور ثم إلى مدينة الملتان لأنهما من

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ٢٠٢ - ٢٠٨ .

أقوى القواعد الحربية في البلاد وهما مقر عظماء السند .

وقد توجه ابن القاسم بجيشه نحو العاصمة في محرم من عام أربعة وتسعين وفي طريقه إليها فتح مدينة منهل وهراور وبسمد وساوندري وقد صالح أهل هذه المدن وأسلم بعض أهلها .

ووصل ابن القاسم بجيشه إلى العاصمة أرور وعسكر على بعد ميل من قلعتها المحصنة ، وكان أميرها قوفي بن داهر قد حصنها تحصينًا قويا وشجع قواده وجنده على الحرب .

وقد بدأت الحرب واستمرت أيامًا إلا أن ابن القاسم اختصر الطريق على المسلمين ،وذلك أن المسلمين لما فتحوا مدينة برهمناباد وقعت الأميرة « لادي »إحدى زوجات الملك داهر في الأسر فأكرمها المسلمون ،فلما كان حصار مدينة أرور العاصمة أرسلها ابن القاسم مع رجال من السند إلى باب المدينة فاجتمع بها بعض زعمائها فأخبرتهم بأنها أرملة داهر وأن الملك قد قتل مع قواده المشاهير،والباقون استسلموا ،وأشارت عليهم بأن يستسلموا للعرب وأن يصالحوهم.

فلما سمع أهل تلك المدينة بمقتل ملكهم وبما يتصف به المسلمون بقيادة ابن القاسم من العدل والتسامح والقوة قرروا قبول الصلح، ولما علم بذلك الأمير قوفي قرر الفرار مع أسرته ليلا إلى مدينة جيبور على الحدود الهندية ليبقى مع أخويه جيسيه ودكيه .

وفتح أهل أرور الأبواب ودخلها ابن القاسم صلحا ، وهكذا نجحت سياسة ابن القاسم في محاولة تأليف قلوب زعماء السند حيث

استفاد منهم كـثيرًا في إقناع قومهم بالصلح وتجنب القتال كـما استفاد من خبرتهم الحربية حيث كان يستشير بعضهم في أموره المهمة .

هذا وقد بقي ابن القـاسم بعض الوقت ينظم أمور عاصـمة السند الإدارية ، وقد عين « رواح بن أسد » حاكمًـا عليها وعين على شئون القضاء موسى بن يعقوب بن طائي الثقفي وبنى فـيها مسجدًا جامعًا، وقد كان تجـاوب أهلها سريعًا مع الإسلام حـيث أسلم بعض سكانها آنذاك [1].

فتح مدينة « باتيه » :

بعد ذلك اتجـه محمد بن القاسم لمـدينة « باتيه » وكان حاكـمها «ككسه» ابن عم الملك داهر ، وقد اشـترك معه في المعركـة الأخيرة، ثم عاد إلـى « باتيه » ولما علم بقـدوم محمـد بن القاسم أرسـل إليه مندوبه واستقـبله بالهدايا والضمانات والرهائن وعـرض الصلح معه، فقبل محمد بن القاسم ذلك منه، وكان ككسـه حكيمًا فاتخذه محمد ابن القاسم مستشارًا له كمـا فوض إليه الأمور المالية في بلاده، وقدمه على جمـيع قادة السند الذين كـانوا معـه ، وقد أخلص هذا الأمـير للمسلمـين ثم دخل في الإسلام على يد محـمد بن القـاسم ، وكان بينهما ثقة كبيرة وانتفع المسلمون به في حروب السند الأخيرة [2] .

وهكذا مازلنا نجـد أمثلة حية لهـذه الظاهرة التي تميزت بها فـتوح

---

(١) مـوسـوعـة التـاريخ الإسـلامي لبـلاد السند والبـنجـاب ١/٢١١-٢١٣، فـتـوح البلدان/٦١٧، الكامل في التاريخ ٤/١١٢ .

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/٢١٣ .

بلاد السند حيث أقدم على الإسلام عدد من زعمائها وأهلها وبقي عدد من زعمائها مخلصين للمسلمين حتى مع بقائهم على دينهم .

وهذا شاهد واضح على أن سلاح القوة الذي ظهر به المسلمون ماهو إلا مفتاح يَلِجُون منه بلاد الكفر والضلال ، أما مفاتيح القلوب فقد كانت بالخشوع المهيب بين يدي الله عز وجل الذي كان يظهره المسلمون في الصلاة وخاصة صلاة الجماعة ، وفي الأخلاق العالية والمعاملة الكريمة التي كان المسلمون يتحلون بها حتى مع أعدائهم، فبينما نجد الأعداء يتمنون أن يقع المسلمون بين أيديهم ليحرقوهم، إذا بهم يقفون أمامهم مشدوهين حيارى قد أُخِذت قلوبهم مما يرون من سمو المسلمين وعظمتهم سواء في علاقتهم مع ربهم أو مع الناس، ثم لايلبثون طويلا حتى يُعلنوا انتماءهم للإسلام الذي لامَسَ شغاف قلوبهم ووافق فطرتهم وأجاب على اسئلتهم المحيرة التي كانت قبل ذلك تصطدم بِجُدر الوثنية المصمتة التي لاتحِير جوابا ولا تحل إشكالا .

فتح مدينة « اسكلنده » :

ثم اتجه ابن القاسم إلى مدينة « اسكلنده » وهو في طريقه إلى الملتان في إقليم البنجاب ، واصطحب معه الأمير السندي «ككسه» وكانت مدينة اسكلنده محصنة للغاية وأهلها قد استعدوا للحرب، فخرج أهلها لقتال المسلمين ، فوجه إليهم ابن القاسم الجيش بقيادة زائدة بن عميرة الطائي ومعه الأمير ككسه ، واشتدت المعركة بين الطرفين إلى أن انهزم أهل اسكلنده وتحصنوا بقلعتهم فلجأ المسلمون إلى سلاحهم الثقيل حيث قذفوا القلعة بأحجار المجانيق والسهام

المشتعلة لمدة أسبوع ، حتى نقصت الغلة في جيش السند وهرب حاكم المدينة إلى حصن « سكه » بقـرب الملتان ، فدخل محـمد بن القاسم المدينة ودارت معركـة داخلها فقُتل كثـير من جنود السند ووقع آخرون أسرى ، وأعطى ابن القاسم الأمان لعامة الناس ، ثم ولّى على المدينة عقبة بن مسلمة التميمي (١) .

فتح قلعة سكه :

ثم اتجه الجيش الإسلامي بقيادة محمد بن القاسم إلى قلعة «سكه» وهي قلعة حربية ليـس فيها إلا الجنود ويحكمها الأميـر «بجهرا» وقد وقعت فيـها بين المسلمين والسند معـارك دامية استـمرت سبعـة عشر يوما، واستـشهد فيـها عشرون قـائدا من قادة المسلمين وخمسـة عشر ومائتان من جـيش المسلمين ،وقد حزن ابن القاسم حـزنًا شديدًا على أولئك الشهداء وخاصة القادة فأقسم أن يهدم تلك القلعة ، وقد هرب أميرها بجهرا إلى الملتان ، فاستولى محمد بن القاسم على القلعة وأمر بهدمها وقتل من بقي فيها من الجنود (٢).

وهذا مثل يصور لنا المعاناة الشديدة التي واجهها المسلمون الأوائل وهم يفتحون تلك البلاد المنيعة،والضحايا التي قدموها في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى ونشر الإسلام في الأرض،فعلى أشلاء أولئك الشهداء في أنحاء المعـمورة،وبدمائهم الزكيـة التي روّوا بها أرضها قـامت بعد ذلك البلاد الإسلامية التي لايزال أهلها أو أكثرهم يعبدون الله تعالى.

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ٢١٤ .

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ٢١٤ ، فتوح البلدان / ٦١٧.

فهل يتذكر الخلف المعاصرون ماقام به أسلافهم الأماجد من الجهود الجبارة في تحويل تلك الممالك الوثنية إلى أوطان إسلامية تخفق فوقها راية التوحيد ، فيحافظوا على وجود الإسلام القوي فيها ؟

لعلهم يتذكرون ، ولعلهم بعد ذلك يفعلون .

فتح مدينة الملتان :

زحف محمد بن القاسم الثقفي بالجيش الإسلامي نحو مدينة الملتان عاصمة إقليم البنجاب ، والتقوا بجيش السند بقيادة الأمير «كندا» حاكم الملتان ومعه الأمير بجهرا حاكم قلعة سكه الذي فرَّ منها واستمر القتال بعنف لمدة يومين سقط فيها كثير من القتلى ، ثم استخدم المسلمون سلاحهم الثقيل حيث رموا تلك المدينة بالمجانيق لمدة شهرين على فترات متقطعة ، ونفدت المواد الغذائية (١) .

يقول البلاذري : فأبلى زائدة بن عمير الطائي وانهزم المشركون فدخلوا المدينة ، وحصرهم محمد ، ونفدت أزواد المسلمين فأكلوا الحُمُر ، ثم أتاهم رجل مستأمن فدلَّهم على مدخل الماء الذي منه شربهم وهو ماء يجري من نهر بسمد فيصير في مجمتع له مثل البركة في المدينة وهم يسمونه البلاح ، فغوَّره ، فلما عطشوا نزلوا على الحكم ، فقتل محمد المقاتلة ، وسبَى الذرية وسبَى سدنة البُدّ - يعني الصنم - وهم ستة آلاف (٢) .

وهكذا كان بلاء المسلمين عظيمًا وانتصاراتهم متوالية في كل

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ٢١٥ .

(٢) فتوح البلدان / ٦١٧ .

معركة يخوضونها مع الأعداء ، ولم يكن يحدُّ من قوتهم واندفاعهم إلا الأسوار الضخمة والحصون المنيعة ، وهذه قد استخدموا لها المجانيق ونحوها ، ولكن قد تكون هناك بعض العوائق تحول دون وصول هذا النوع من السلاح كما هو الحال في مثل هذا البلدة وبلدة برهمناباد وهما من أعظم تلك البلاد تحصينا .

ولقد قيض الله للمسلمين في حصارهم للملتان هذا الرجل الذي دلَّهم على عورة بلاده حيث يتسرب إليهم ماء الشرب عبر مسارب خفية ، فكان قطع ذلك الماء وسيلة ناجعة إلى إلجاء أهل ذلك البلد على النزول على حكم المسلمين .

ولربما كان من المناسب أن نعود إلى تحليل هذه الظاهرة العجيبة حتى لا يظن بعض الناس أن هؤلاء الذين قدموا الخدمات الجليلة للمسلمين ليسوا إلا أناسا نفعيين يسعون لتأمين مصالحهم الخاصة، والحقيقة أن هذه الظاهرة ناتجة عن إعجاب أولئك القوم بالإسلام وميلهم إلى المسلمين ومايرجونه من الخلاص على أيديهم من قهر الولاة وظلمهم لما اشتهر به المسلمون آنذاك من العدل والرحمة والمواساة ، ومما يدل على ذلك استمرار المشهورين من هؤلاء على الولاء للمسلمين ودخول كثير منهم في الإسلام .

وبعد فتح الملتان جاء الخبر بوفاة الحجاج بن يوسف فرجع محمد ابن القاسم إلى عاصمة السند « أرور» وتلقى تعازي الناس حيث كان الحجاج ابن عمه ووالد زوجته .

فتح إقليم الكيرج :

بعد فترة من الراحة خرج محمد بن القاسم بالجيش إلى إقليم الكيرج على حدود الهند حيث لجأ إليها الأمير جيسيه الذي كان ابن القاسم يعتبر بقاءه خطراً على مستقبل المسلمين في السند ، وجرت هناك معارك حامية بين المسلمين وأهل كيرج قُتل فيها حاكمها دوهر وفي ذلك يقول الشاعر :

نحن قتلنا داهراً ودوهرا   والخيل تردي منسرا فمنسرا

وسقطت المدينة بيد المسلمين[١] .

نهاية محمد بن القاسم :

اتجه ابن القاسم إلى مدينة قنوج التي رفض حاكمها قبول الإسلام والاستسلام .

ولما كاد ابن القاسم أن يصل إلى قنوج التي تعتبر آخر بلاد السند جاء الأمر من الخليفة سليمان بن عبد الملك بعزله والقدوم إلى العراق[٢]، حيث توفي الوليد بن عبد الملك وخلفه سليمان بن عبد الملك الذي قام بعزل جميع الولاة الذين أيدوا الوليد في سعيه لنقل الخلافة من سليمان إلى عبد العزيز بن الوليد ، وحيث لم يتم ذلك وآل الأمر إلى سليمان فقد أقدم على عزل أولئك الولاة من غير نظر إلى مايترتب على ذلك من ضرر على المسلمين وعلى دعوة الإسلام .

(١) فتوح البلدان / ٦١٨ ، موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ٢١٩/١.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ٢١٩/١ - ٢٢٢ ، فتوح البلدان/ ٦١٨ .

وبعزل محمد بن القاسم توقف الجهاد في بلاد السند بل إن بعض مناطقها قد انتقضت بعد ذلك على حكم المسلمين .

ومما زاد الأمر سوءًا بالنسبة لابن القاسم أن سليمان بن عبد الملك ولَّى على العراق صالح بن عبد الرحمن وكان بينه وبين الحجاج عداء قديم حيث كان الحجاج قد قتل أخاه آدم بن عبد الرحمن لكونه يرى رأي الخوارج ، فانتقم صالح من أقارب الحجاج الذين منهم محمد بن القاسم ، فقد ولَّى صالح بن عبد الرحمن على السند يزيد ابن أبي كبشة وأمره بأن يقيد محمد بن القاسم وأن يرسله إلى العراق، ففعل ذلك واستسلم ابن القاسم طاعة لأولي الأمر بالرغم من شعبيته الكبيرة في بلاد السند وكثرة جنوده حيث بلغ عددهم خمسين ألفًا من العرب والسند .

وحُمل ابن القاسم إلى العراق مقيدا وأدخله صالح بن عبد الرحمن في سجن واسط ، ولقد كان تأثره من تلك المعاملة القاسية شديدًا وحزنه بالغًا حيث قال في ذلك :

فَلئِنْ ثويت بواسط وبأرضها رَهْنَ الحديد مكبَّلا مغلولا
فَلَربَّ قينة فارس قد رُعتُها ولرب قِرنٍ قَدْ تركت قتيلا

وقال أيضًا :

لو كنت أجمعت الفرار لوُطِّئت إناث أُعدَّت للوغى وذكور
ومادخلتْ خيل السكاسك أرضنا ولاكان من عكٍّ عليّ أمير
ولاكنت للعبد المزوني تابعا فيالك دهر بالكرام عثور

وقـد عذبه صـالح في رجال من آل أبي عـقـيل الثقـفيين حـتى قتلهم[1].

وهكذا قُتِل هذا الشاب على يد هـذا الوالي الظالم الذي أخـذ بجريـرة الحجاج كل مـن ينتسـبون إلى جده أبـي عقيل عـلى عادات الجاهلية .

وأفَلَ هذا النجم الساطع الذي أضاء سماء بلاد السند بقوة وسرعة فائقة بعد أن قام بتلك الأعمال الجـهادية العظيمة وأرسى قواعد الدولة الإسلامية في بلاد السند .

لقد كان محـمد بن القاسم ناجحا في الأعمال الحـربية والأعمال الإدارية فقد نجح في كل حروبه التي قادها ونجح في إدارته لتلك البلاد الواسعة التي حكمـها و استقطب محبة وإعـجاب قادة المسلمين الذين كانوا تحت إدارته وقـادة السند الذين أعلنوا الولاء له طوعًا وقـدموا له خدمات كبيرة في أعماله الجهادية والإدارية .

ولقد كان محمد بن القاسم بارعًـا جدًّا في استمالة زعماء الكفار حيث كـان يقدرهم ويلاطفـهم ويُبقي على سـيادتهم في أقـوامهم . . وكان لهذه السياسة البارعـة أثر كبير في ولاء عدد منهم لدولة الإسلام ودخول بعضهم مع أقوامهم في الدين الإسلامي .

ولقد بلغ من نتـائج هذه السياسة الحكيـمة أن استطاع محـمد بن القاسم أن يضم إلـى جيشـه أكثر من ثلاثين ألفـا من جنود السند مع قادتهم حتى بلغ جيشه في آخر معركة خاضها خمسين ألفا .

---

(١) فتوح البلدان / ٦١٨ - ٦١٩ .

وفي تقديري أنه لو استمر في القيادة مع دعم دولة الإسلام له لاستطاع أن يفتح جميع بلاد الهند ولخضع له ملوكها . . ولكنْ قاتل الله السياسة الهوجاء واتِّباع الهوى وتغليب المصلحة الخاصة على مصلحة المسلمين العامة .

فلقد كان الهمُّ الكبير الذي يحمله سليمان بن عبد الملك أن ينتقم من ولاة أخيه الوليد الذين كان لهم معه مواقف غير مرضية من غير أن ينظر إلى مصلحة المسلمين العامة ومصلحة دولة الإسلام .

ولهذا الغرض اختار الولاة الذين يندفعون اندفاعا أهوج نحو تحقيق هذا الغرض ، وكان ابن القاسم من ضحايا هذا الانحراف السياسي . بل كانت الدولة الإسلامية ومستقبل دعوة الإسلام من ضحايا ذلك . فرحم الله ابن القاسم وجزاه خيرًا على ماقدم للإسلام والمسلمين .

* * *

- الجهاد في السند في عهد هشام بن عبد الملك -

بعد أن توفي أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك في يوم السبت من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين للهجرة انتقلت الخلافة إلى أخيه أمير المؤمنين سليمان، ثم إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، وذلك في يوم الجمعة لعشر مضين من صفر سنة تسع وتسعين، ثم إلى أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك في يوم الأربعاء لليال بقين من شهر رمضان سنة إحدى ومائة ،ولم يكن في تلك العهود جهاد بارز في السند(١)، غير أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله كان له جهد واضح في دعوة زعماء الكفار إلى الدخول في الإسلام ، وقد أجابه إلى ذلك بعضهم وولى بعض هؤلاء على بلادهم كما هو مذكور في بيان مواقفه .

وحينما آلت الخلافة إلى أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان في أواخر شهر شعبان من سنة خمس ومائة (٢) نشطت حركة الجهاد في السند بهدف تثبيت الأوضاع فيها وإخضاع بعض الولايات الهندية المجاورة التي كانت من عوامل عدم استقرار الأوضاع في السند .

ولاية الجنيد بن عبد الرحمن المُرّي :

في سنة سبع ومائة تولى الجنيد بن عبد الرحمن المري بلاد السند، وهو رجل سياسي كبير وقائد بصير، وكانت السند قد عظمت بها الفتن والقلاقل وقلّ بها الأمن ، وعظم سلطان الأمير جيسيه الذي كان

---

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٤٩٥ ، ٥٥٠ ، ٥٧٤ .

(٢) المرجع السابق ٧/ ٢٥ .

قد استــولى على منطقة برهمناباد وأقره عليــها أمير المؤمنــين عمر بن عبدالعزيز لما دخل في الإسلام .

ولما وصل الجنيد إلى بلاد السند قام بجولة في مناطقها فلما وصل إلى منطقة برهمناباد رفض جــيسيه أن يسمح له بدخــولها قائلا : إني قد أسلمت وولاني الرجل الصالح[1] بلادي ، ولست آمنك ، فأعطاه رهنا وأخذ منــه رهنا بما على بلاده من الخراج ، وخاف جــيســيه من هجوم الجنيد عليــه فاستعد له واستعــان بحكام إقليم كجرات من بلاد الهند ، وكــان كل واحد من القــائدين يراقب تحركــات الآخر إلى أن وقعت بين الجيشين معركة انهزم فيها جيش جيسيه ووقع هو في الأسر فقتله الجنيد .

ثم قام الجنيــد بعد ذلك بإخضاع مــدينة الكيرج وكان محــمد بن القاســم قد فتــحهــا ثم انتقــضت على دولة الإسلام وأراد حــاكمــها الاستقــلال كما فعل جيــسيه ، فسار إليــها الجنيد بجيــشه وجرت بين الجيشين معركــة دامية انهزم فيها حاكم الكيــرج وتحصن بالمدينة، فأمر الجنيد بن عبد الرحمن باستخدام المنجنيقات بالقذائف النارية والحجرية فقذف المسلمون بهــا واستخدموا آلة حربيــة تسمى كباش وهي آلة من خشب وحديد يجرونها بنوع من الخيل فيدق بها الحائط فينهدم، فدكوا بها حائط المدينة حتى انثلم ، فدخلــوا المدينة وقاتلوا أهلها بشدة حتى هزموهم ، وهرب حاكمها واستسلم أهلها .

ولما انتــهى الجنيد من إخــضاع منطقة الــسند جهز جــيشــا كبــيرا

---

(١) يعني عمر بن عبد العزيز .

لإخضاع مناطق الهند المجاورة التي كانت تمد المتمردين في السند، ففتح عددا من المدن منها مرمد ومندل ودهنج وبنجاسر عاصمة إقليم كجرات الشمالية .

وعلم الجنيد بأن الكجراتيين يعدون العدة لحربه في مدينة بروص (بهروج) فتوجه إلى هناك وحارب أهلها وفتح المدينة ثم توجه نحو مدينة ماليه (مالوه) وفتحها كما فتح مدينة أرنين (أجين) ومدينة بهرمد (١) .

وهكذا قام الجنيد بن عبد الرحمن المري بإخضاع بلاد السند وإقليم كجرات من بلاد الهند بنجاح وسرعة ، وعادت الحياة إلى بلاد السند بالطمأنينة والأمن .

ولاية الحكم بن عوانة الكلبي :

لم يستمر الأمن والاستقرار في السند طويلا حيث تم نقل الجنيد ابن عبد الرحمن إلى ولاية خراسان لاحتياج الدولة الأموية له هناك، وذلك في سنة إحدى عشرة ومائة ، فتولى إمرة السند بعده تميم بن زيد العتبي ولم يكن في مثل كفاءة الجنيد فاضطربت أحوال البلاد وقامت الفتنة بين أهل السند والعرب وبين العرب أنفسهم ، ولما أوشكت البلاد على نشوب حرب داخليه قرر تميم مغادرة البلاد إلى العراق ، وقد مات في الطريق، وعلم والي العراق خالد بن عبد الله القسري بذلك فولى على السند الحكم بن عوانة الكلبي سنة اثنتي

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ١/ ٢٣٢ - ٢٣٨ ، فتوح البلدان للبلاذري / ٦٢٠-٦٢١، الكامل في التاريخ ٤/ ١٣٤ .

عشرة ومائة ، وقدم الحكم إلى السند وهي في ذلك الوضع المضطرب فسار سيرة حسنة وأحيى الجهاد ،وكان من عوامل نجاحه اختياره عمرو ابن محــمد بن مسلم الثــقفي نائبا عنه لأن عــمرًا محــبوب في السند لشهرة أبــيه فاتح السند ، وقد أسند إليــه الحكم قيادة الجيش فــتحرك عمــرو بالجيش لإخــماد الفتن فــرجع من جولتــه منتصرا فــاستــقرت الأوضاع في السند ورضي أهلها بولاية الحكم .

ولقد بقي الحكم في إمارة السند حتى عــام اثنين وعشرين ومائة، حيث خرج على رأس جيش لإخماد الفتن التي ثارت في بعض مناطق السند وفي صحبته عمرو بن محمد بن القاسم فاستشهد الحكم وانتصر جيشه على الأعداء (١) .

ولاية عمرو بن محمد بن القاسم :

بعد استــشهاد الحكم بن عوانة ولَّى والي العــراق يوسف بن عمر على السند عمرو بن محمد بن القــاسم الثقفي ، فكان من أعماله بناء مدينة المنصــورة لتكون حصنا للمسلمين عند أي هجــوم من الأعداء، وقد أفاد ذلك حيث هجم أحد ملوك الهند المجاورين للسند على تلك المدينة لما أحسَّ بقــلة جيش المســلمين المرابط فــيهــا ، فــتحــصن بهــا المسلمــون لعدم مقــدرتهم على قتــال ذلك الجيش المهــاجم ، وطلب عمرو المدد من والي العــراق فأمده بأربعة آلاف مقاتل ، فــقرر عمرو مهاجمــة الجيش الهندي وجعل على مقدمته مــعن بن زائدة الشيباني،

---

(١) موســوعة التــاريخ الإسلامي ١/ ٢٣٨ -٢٤٤ ، فتــوح البلدان / ٦٢٢-٦٢٣ ، تاريخ خليفة بن خياط / ٣٥٤ ، الكامل في التاريخ / ١٣٥ .

وهجموا ليلا على الجيش الهندي فانتصر المسلمون وقتل الكثير من الجيش الهندي ، ووقع ملكهم في الأسر ولكن المسلمين لم يعرفوه، فانقذه جنوده ولاذوا جميعا بالفرار وتركوا وراءهم أموالهم والأسرى الذين أسرهم المسلمون (١) .

* * *

(١) تاريخ اليعقوبي ٢/ ٣٢٤ .

الجهاد والفتوحات

فى

عهـــد العباسيين

- الجهاد في الهند في عهد المهدي -

لم يكن فيما بعد عهد هشام بن عبد الملك أخبار مهمة عن مواقف المسلمين الجهادية في بلاد السند ، حيث اشتغل المسلمون بالخلافات والقتال فيما بينهم حتى آلت الخلافة إلى العباسيين فاشتغلوا بتوطيد حكمهم ومقاومة الفتن الداخلية طيلة عهد أبي عبد الله السفاح وأبي جعفر المنصور .

وبعد وفاة أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور بويع بالخلافة لولده المهدي محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنهما ، وذلك في يوم الخميس لإحدى عشرة بقيت من ذي الحجة من سنة ثمان وخمسين ومائة[1] .

وقد ذكر الإمام أبو جعفر الطبري في حوادث سنة تسع وخمسين ومائة أن المهدي وجه عبد الملك بن شهاب المسمعي في البحر إلى بلاد الهند، وفرض معه لألفين من أهل البصرة من جميع الأجناد وأشخصهم معه، وأشخص معه من المطَّوعة الذين كانوا يلزمون المرابطات ألفا وخمسمائة رجل، ووجه معه قائدًا من أبناء أهل الشام يقال له ابن الحباب المذحجي في سبعمائة من أهل الشام، وخرج معه من مطَّوعة أهل البصرة بأموالهم ألف رجل، فيهم - فيما ذكر- الربيع ابن صبيح ، ومن الأسواريين والسبابجة [2] أربعة آلاف رجل، فولَّى عبدالملك بن شهاب المنذرَ بن محمد الجارودي على الألف رجل

(١) تاريخ الطبري ٨/١٠٨ .

(٢) ذكر الطرازي أنهم من السند - موسوعة التاريخ الإسلامي ١/ ٢٦٤ .

المطَّوعة من أهل البصرة ، وولى ابنه غسان بن عبد الملك الألفي رجل الذين من فرض البصرة وولى عبد الواحد بن عبد الملك الألف والخمسمائة الرجل من مطَّوعة المرابطات ، وأفرد يزيد بن الحباب في أصحابه فخرجوا ، وكان المهدي وجه لتجهيزهم حتى شخصوا أبا القاسم محرز بن إبراهيم ، فمضوا لوجههم حتى أتوا مدينة باربند(١) من بلاد الهند في سنة ستين ومائة (٢) .

وذكر المؤرخ ابن الأثير أنهم نازلوا أهل تلك المدينة وحاصروها من نواحيها، وحَرَّض الناس بعضهم بعضا على الجهاد وضايقوا أهلها ففتحها الله عليهم عنوة ، وأن أهلها احتموا بالبدِّ وهو الصنم الذي لهم فأحرقه المسلمون عليهم فاحترق بعضهم وقُتل الباقون، واستشهد من المسلمين بضعة وعشرون رجلا(٣) .

* * *

(١) ذكر الطرازي أن أصلها بهاربوت وهي ميناء صغير يقع على بعد سبعة أميال من ميناء بهروج (بروص) - المرجع السابق ١/ ٢٦٤ - .

(٢) تاريخ الطبري ٨/ ١١٦ - ١١٧ .

(٣) الكامل في التاريخ ٥/ ٥٥ .

– جهاد محمود بن سبكتكين في بلاد الهند –

قبل الحـديث عن جهـاد هذا البطل الكبيـر والقائد البـصيـر فإنه يحسن بنا تقديم نبـذة موجزة عن حياته وعن دولته الفتـية القوية التي استولى بها على معظم أقطار الهند وقضى بها على معظم ملوكهم .

فهـو السلطان أبو القـاسم محمـود بن ناصر الدولة سـبكتكين ، لقَّبه أمير المؤمنين القادر بالله بعـدما جعله سلطانا بعد موت أبيه « يمين الدولة وأمين الملة » فاشتهر بذلك .

تولى أبوه إمـارة « غـزنة » (١) من قِبَل السـامانيين بعدمـا مات حاكـمهـا أبو إسحـاق ابن البكتين ، وكـان سبكتكين أبرز رجـاله ، فاجتـمعت كلمة مُـقَدَّمي تلك الإمارة على تأميـر سبكتكين لشهـامته وشجاعته .

وقد آل الأمـر إلى ابنه محمود بعـد موته بعد نزاع كان مع أخـيه إسماعيل ، وقـد قام محمود بتوسيع نطاق دولتـه حيث استولى على خراسـان وانتزعـها من يد السامـانيين سنة تسع وثمانـين وثلاثمائة ، فقويت بذلك دولته ، وأصبح أمراء خـراسان من أركان دولته وجيشه وشاركوه في فتوحاته .

ثم إن بلاد سجـستان دخلت في طاعتـه سنة ثلاث وتسعين بدون قتال ، وذلك بدخول قوادها وولاة أمرها تحت سلطانه .

وقد فرض على نفسه غزو بلاد الهند كل عام .

(١) هي عاصمة إقليم زابلستـان ، ويقع هذا الإقليم بين خراسان والهند – معجم البلدان ٤/٢٠١ – .

ذكر ذلك ابن خلكان ثم قال : ولم يزل يفتح في بلاد الهند حتى انتهى إلى حيث لم تبلغه في الإسلام راية ، ولم تُتْلَ به قط سورة ولا آية .

وقد توفي رحمه الله سنة إحدى أو اثنتين وعشرين وأربعمائة[1].

وذكر الحافظ ابن كثير أنه سار في رعاياه سيرة عادلة وقام في نصر الإسلام قياما تاما ، قال : وفتح في بلاد الكفار من الهند فتوحات هائلة ، لم يتَّفق لغيره من الملوك ، لاقبله ولابعده ، وكسر من أصنامهم شيئًا كثيرًا [2] .

جهاده مع جيبال ملك الهند :

يقول المؤرخ العلامة أبو الحسن على بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير : في هذه السنة [يعني سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة] أوقع يمين الدولة محمود بن سبكتكين بجيبال ملك الهند وقعة عظيمة، وسبب ذلك أنه لما اشتغل بأمر خراسان وملكها وفرغ منها ومن قتال خلف بن أحمد ، وخلا وجهه من ذلك أحب أن يغزو الهند غزوة تكون كفارة لما كان منه من قتال المسلمين ، فثَنَى عنانه نحو تلك البلاد فنزل على مدينة برشور ، فأتاه عدو الله جيبال ملك الهند في عساكر كثيرة ، فاختار يمين الدولة من عساكره والمُطَّوعة خمسة عشر ألفا، وسار نحوه فالتقوا في المحرم من هذه السنة ، فاقتتلوا وصبر الفريقان، فلما انتصف النهار انهزم الهنود وقُتِل فيهم مقتلة عظيمة ، وأُسر

---

(١) وفيات الأعيان ٥/ ١٧٥ - ١٨١ .

(٢) البداية والنهاية ١٢/ ٣٢ .

جيبال ومعه جماعة كثيرة من أهله وعشيرته ، وغنم المسلمون منهم أموالا جليلة وجواهر نفيسة ، وأُخذ من عنق عدو الله جيبال قلادة من الجوهر العديم النظير ، قوِّمت بمائتي ألف دينار ، وأُصيب أمثالها في أعناق مقدَّمي الأسرى [1] .

وإن ما شعر به محمود بن سبكتكين من ارتكاب الذنب في قتال حكام الدويلات المجاورة من المسلمين يدل على اتصافه بشيء من الورع والخشية، ولعل الله تعالى أن يكفر عنه عمله هذا بجهاده الطويل ضد الكفار وتحطيم الآلاف من الأصنام ودخول الآلاف من الكفار في الإسلام على يديه .

وماجاء في هذا الخبر من وصف ذلك الحاكم الهندي وحاشيته من التحلي بالجواهر النفيسة الغالية يدل على ماكانوا يعيشون فيه من حياة الترف والبذخ الذي يقوم غالبًا على ظلم المستضعفين ، فماأغنى عنهم ذلك شيئًا ولاكثرة جنودهم وعتادهم لما حلَّتْ بهم نقمة الله تعالى على يد جنوده المجاهدين .

جهاده مع بيدبا صاحب كواكير :

ذكر ابن الأثير أن السلطان محمود بعد أن غزا الملتان سار عنها إلى قلعة كواكير ، وكان صاحبها يعرف ببَيْدَاَ ، وكان بها ستمائة صنم، فافتتحها وأحرق الأصنام ، فهرب صاحبها إلى قلعته المعروفة لكالنجار ، فسار خلفه إليها ، وهو حصن كبير يسع خمسمائة ألف إنسان، وفيه خمسمائة فيل وعشرون ألف دابة ، وفي الحصن مايكفي

(١) الكامل في التاريخ ٧/ ٢١٣ .

الجميع مدة ، فلما قاربها يمين الدولة وبقي بينهما سبعة فراسخ رأى من الغياض المانعة من سلوك الطريق مالا حدَّ له ، فأمر بقطعها، ورأى في الطريق واديا عظيم العمق بعيد القعر ، فأمر أن يطم منه مقدار يسع عشرين فارسا فطموه بالجلود المملوءة ترابا ، ووصل إلى القلعة فحصرها ثلاثة وأربعين يوما ، وراسله صاحبها في الصلح فلم يجبه ، ثم بلغه عن خراسان اختلاف فصالح ملك الهند على خمسمائة فيل وثلاثة آلاف مَنٍّ من الفضة [1] .

وهذا الخبر فيه مثل من الصعاب والمشاقِّ التي كان يواجهها يمين الدولة محمود بن سبكتكين في جهاده في بلاد الهند واجتهاده في هدم معالم الشرك التي أهمها الأصنام .

جهاده في بلاد الغور :

وذكر ابن الأثير أيضًا غزو يمين الدولة محمود بن سبكتكين بلاد الغور فقال : بلاد الغور تجاور غزنة ، وكان الغور يقطعون الطريق ويخيفون السبيل وبلادهم جبال وعرة ومضايق غَلَقَة ، وكانوا يحتمون بها ويعتصمون بصعوبة مسلكها، فلما كثر ذلك منهم أَنِفَ يمين الدولة محمود بن سبكتكين أن يكون مثل أولئك المفسدين جيرانه وهم على هذه الحال من الفساد والكفر ، فجمع العساكر وسار إليهم وعلى مقدمته التونتاش الحاجب صاحب هراة ، وأرسلان الجاذب صاحب طوس، وهما أكبر أمرائه ، فسارا فيمن معهما حتى انتهوا إلى مضيق قد شُحن بالمقاتلة ، فتناوشوا الحرب وصبر الفريقان ، فسمع يمين

---

(١) الكامل في التاريخ ٧/٢٢٨ .

الدولة الحال فجدَّ في السـير إليهم ، وملك عليهم مسالكهم فـتفرقوا وساروا إلى عظيم الغوريـة المعروف بابن سوري ، فانتهـوا إلى مدينته التي تُدْعَى آهنكران فبـرز من المدينة في عشرة آلاف مقاتـل، فقاتلهم المسلمـون إلى أن انتصف النهـار ، فرأوا أشجع الناس وأقـواهم على القتـال، فأمـر يمين الدولة أن يولوهم الأدبار على سـبيل الاسـتدراج ففعلوا ، فلما رأى الغورية ذلك ظنوه هزيمة فاتبعوهم حتى أبعدوا عن مدينتـهم ، فحيـنئذ عطف المسلمون عليـهم ووضعـوا السيوف فـيهم فأبـادوهم قتـلا وأسرا ، وكان فـي الأسرى كبـيرهم وزعـيمـهم ابن سوري، ودخل المسلمون المدينة وملكوها وغنموا مافيها ، وفتحوا تلك القلاع والحـصون التي لهم جمـيعها ، فلمـا عاين ابن سوري مـافعل المسلمون بهم شرب سمّا كان معه فمات ، وخسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ، وأظهر يمين الدولة في تلك الأعمال شعار الإسلام وجعل عندهم من يعلمهم شرائعه ، وعاد (١) .

وهكذا كان يمين الدولة محمود بن سبكتكين مغامرا جسوراً حينما سار بجيشه إلى أولئك القوم الأشداء الذين قد امتنعوا بجبالهم الوعرة وحصونهم المنيعة ، ولقد وُفق بقادة وجنود طائعين فدائيين حيث قاموا بتلك المهمة الصعبة .

كمـا أنه وُفق في خطته الحربيـة التي أظهر فيـها التراجع خـدعة لأعدائه ثم كر عليـهم بعدما أبعدوا عن حصونهم فـفاجأهم بماأذهلهم وحط من قواهم فتفرقوا وانهزموا .

---

(١) الكامل في التاريخ ٧/ ٢٥٣ .

وإن من مواقفه العالية اهتمامه بدعوة أولئك القوم إلى الإسلام ، وتكليف من يعلمونهم شرائعه .

جهاده في وسط الهند :

من مواقف السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين الجهادية ماذكره ابن الأثير في حوادث سنة أربع وأربعمائة قال : في هذه السنة سار يمين الدولة إلى الهند في جمع عظيم وحشد كثير ، وقصَدُوا سطَةَ البلاد من الهند فسار شهرين حتى قارب مقصده ورتب أصحابه وعساكره ، فسمع عظيم الهند به فجمع من عنده من قواده وأصحابه، وبرز إلى جبل هناك صعب المرتقى ضيق المسلك فاحتمى به وطاول المسلمين ، وكتب إلى الهنود يستدعيهم من كل ناحية ، فاجتمع عليه منهم كل من يحمل سلاحا ، فلما تكاملت عدته نزل من الجبل، وتصافَّ هو والمسلمون واشتد القتال وعظم الأمر ، ثم إن الله تعالى منح المسلمين أكتافهم فهزموهم وأكثروا القتل فيهم، وغنموا مامعهم من مال وفِيَلة وسلاح وغير ذلك .

ووُجد في بيت بُدٍّ عظيم (١) حجر منقور ، دلَّت كتابته على أنه مبني منذ أربعين ألف سنة ، فعجب الناس لقلة عقولهم (٢) .

وهكذا انتصر المسلمون على ذلك الحاكم الهندي بالرغم من كونه قد أحكم أمره حينما لجأ إلى ذلك الجبل ، ثم جمع جنده واستنجد بكل من حوله حتى كوَّن جيشا عظيما، ولكنهم لم يثبتوا أمام عزم المسلمين القوي وصبرهم الشديد .

---

(١) البد بضم الباء وتشديد الدال المضمومة هو الصنم .

(٢) الكامل في التاريخ ٧/ ٢٧٠ - ٢٧١ .

جهاده في بلاد تانيشر :

ثم ذكر ابن الأثير في حوادث سنة خمس وأربعمائة أنه قد ذُكر ليمين الدولة أن بناحية تانيشر فيلةً من جنس فيلة الصيلمان الموصوفة في الحرب ، وأن صاحبها غَالٍ في الكفر والطغيان والعناد للمسلمين، فعزم على غزوه في عقر داره ، وأن يذيقه شربة من كأس قتاله، فسار في الجنود والعساكر والمتطوعة فلقي في طريقه أودية بعيدة القعر وعرة المسالك وقفارًا فسيحة الأقطار والأطراف ، بعيدة الأكناف ، والماء بها قليل، فلقوا بها شدة وقاسوا مشقة، إلى أن قطعوها، فلما قاربوا مقصدهم لقوا نهرًا شديد الجَرْية صعب المخاضة، وقد وقف صاحب تلك البلاد على طرفه يمنع من عبوره ، ومعه عساكره وفيلته التي كان يُدِلُّ بها ، فأمر يمين الدولة شجعان عسكره بعبور النهر وإشغال الكفار بالقتال ليتمكن باقي العسكر من العبور، ففعلوا ذلك وقاتلوا الهنود، وشغلوهم عن حفظ النهر حتى عبر سائر العسكر في المخاضات وقتلوهم من جميع جهاتهم إلى آخر النهار ، فانهزم الهنود وظفر المسلمون وغنموا مامعهم من أموال وفيلة ، وعادوا إلى غزنة موفرين ظافرين [1] .

وهذا الخبر يشتمل على خطة حربية ناجحة خطط لها يمين الدولة ونجح في تنفيذها ، حيث أشغل الجيش الهندي بطائفة من جيشه ليتمكن بقية الجيش الإسلامي من عبور النهر ، فعبروا وطوقوا الكفار من كل الجهات ، ولقد كان أولئك الجنود المنتخبون لإشغال الكفار في

(١) الكامل في التاريخ ٧/ ٢٧٢ .

غاية الشجاعة والتضحية حيث فَدَوا بقية الجيش الإسلامي بأنفسهم، وتلقوا الضربات الأولى التي تكون هي أشد القتال وأعنفه .

جهاده في بلاد قشمير وماحولها :

وذكر ابن الأثير أيضًا في حوادث سنة سبع وأربعمائه أن يمين الدولة غزا بلاد الهند ، عازما على غزو قشمير ، إذ كان قد استولى على بلاد الهند مابينه وبين قشمير ، وأتاه من المتطوعة نحو عشرين ألف مقاتل ، مما وراء النهر وغيره من البلاد ، وسار إليها من غزنة ثلاثة أشهر سيراً دائما ، وعبر سيحون وجيلوم ، وهما نهران عميقان شديدا الجرية ، فوطئ أرض الهند وأتاه رسل ملوكها بالطاعة وبذل الإتاوة ، فلما بلغ درب قشمير أتاه صاحبها وأسلم على يده وسار بين يديه إلى مقصده ، فبلغ ماء جون في العشرين من رجب ، وفتح ماحولها من الولايات الفسيحة والحصون المنيعة ، حتى بلغ حصن هَوْدَب وهو آخر ملوك الهند ، فنظر هودب من أعلى حصنه فرأى من العساكر ماهاله وأرعبه ، وعلم أنه لاينجيه إلا الإسلام ، فخرج في نحو عشرة آلاف ينادون بكلمة الإخلاص طلبا للخلاص، فقبله يمين الدولة وسار عنه إلى كَلْجَنْد ،وهو من أعيان الهند وشياطينهم، وكان على طريقه غياض ملتفة لايقدر السالك على قطعها إلا بمشقة ، فسيَّر كلجند عساكره وفيوله إلى أطراف تلك الغياض يمنعون من سلوكها، فترك يمين الدولة عليهم من يقاتلهم وسلك طريقا مختصرة إلى الحصن من خلفهم فلم يشعروا به إلا وهو معهم ، فقاتلهم قتالا شديداً فلم يطيقوا الصبر على حد السيوف فانهزموا ، وأخذهم السيف من

خلفهم، ولقوا نهر عميقا بين أيديهم فاقتحموه فغرق أكثرهم، وكان القتلى والغرقى قريبا من خمسين ألفا .

وعمد كلجند إلى زوجته فقتلها ثم قتل نفسه بعدها وغنم المسلمون أمواله وملكوا حصونه .

ثم سار [يعني يمين الدولة] نحو بيت متعبَّد لهم وهو من مهرة الهند ، وهو من أحصن الأبنية ، على نهر ، ولهم به من الأصنام كثير ، منها خمسة أصنام من الذهب الأحمر مرصعة بالجواهر ، وكان فيها من الذهب ثلاثمائة وتسعون ألفا وستمائة ألف مثقال ، وكان بها من الأصنام المصوغة من النقرة نحو مائتي صنم ، فأخذ يمين الدولة ذلك جميعه وأحرق الباقي .

وسار نحو قنوج وصاحبها راجيبال ، فوصل إليها في شعبان، فرأى صاحبها قد فارقها وعبر الماء المسمى كَنَكْ ، وهو ماء شريف عندهم، يرون أنه من الجنة وأن من غرَّق نفسه فيه طهر من الآثام، فأخذها يمين الدولة وأخذ قلاعها وأعمالها ، وهي سَبْع على الماء المذكور ، وفيها قريب من عشرة آلاف بيت صنم ، يذكرون أنها عُملت من مائتي ألف سنة إلى ثلاثمائة ألف كذبا منهم وزورا، ولما فتحها أباحها عسكره (١) .

وإننا نلاحظ من هذا العرض وماسبقه كثرة الأصنام في الهند إلى حد كبير ، كما نلاحظ إغراقا من زعمائها وحاشيتهم في الترف والزينة، فكان لهم بالمرصاد بطل الإسلام يمين الدولة محمود بن

---

(١) الكامل في التاريخ ٧/ ٢٨٢ - ٢٨٣ .

سبكتكين الذي قضى على ماجمعوه من زخارف الدنيا وسلب منهم ذلك وتقوى به على الجهاد في سبيل الله تعالى ، وأزال في مدة قصيرة مابناه مضللوهم من الأصنام على مدى آلاف السنين .

وهكذا يتبوأ المسلمون أعمال الإصلاح والتطهير عن طريق الجهاد الإسلامي العظيم .

جهاده في مملكة كجورامة :

ومن مواقف السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين الجهادية ماذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة تسع وأربعمائة . قال : في هذه السنة سار يمين الدولة إلى الهند غازيا ، واحتشد وجمع واستعد وأعد أكثر مما تقدم .

وسبب هذا الاهتمام أنه لما فتح قنوج وهرب صاحبها « رآي قنوج» منها أرسل بيدا اللعين - وهو أعظم ملوك الهند مملكة وأكثر جيشا وتُسمى مملكته كجورامة - أرسل رسلا إلى رآي قنوج- واسمه راجيبال - يوبخه على انهزامه وإسلام بلاده للمسلمين، وطال الكلام بينهما ، وآل أمرهما إلى الاختلاف ، وتأهب كل واحد منهما لصاحبه وسار إليه ، فالتقوا واقتتلوا ، فقتل راجيبال وأتى القتل على أكثر جنوده ، فازداد بيدا بما اتفق له شرًا وعتوا وبُعْدَ صيتٍ في الهند وعلواً ، وقصده بعض ملوك الهند الذي ملك يمين الدولة بلاده وهزمه وأباد أجناده وصار في جملته وخدمه ، والتجأ إليه فوعده بإعاده ملكه وحفظ ضالته عليه ، واعتذر بهجوم الشتاء وتتابع الأنداء [1] .

---

(١) لعله أراد الأمطار .

فنمت هذه الأخبار إلى يمين الدولة فأزعجته وتجهز للغزو وقصد بيدا وأخْذَ ملكه منه ، وسار من غزنة وابتدأ في طريقه بالأفغانية وهم كفار يسكنون الجبال ويفسدون في الأرض ويقطعون الطريق بين غزنة وبينه - فقصد بلادهم وسلك مضايقها وفتح مغالقها وخرب عامرها، وغنم أموالهم وأكثر القتل فيهم والأسر ، وغنم المسلمون من أموالهم الكثير .

ثم استقل على المسير ، وبلغ إلى مكان لم يبلغه فيما تقدم من غزواته ، وعبر نهر كَنَك، ولم يعبره قبلها ، وجدَّ به السير فأتاه في الطريق خبر ملك من ملوك الهند يقال له « بروجيبال» قد سار من بين يديه مُلتجِأً إلى بيدا ليحتمي به عليه ، فطوى المراحل فلحق ببروجيبال ومن معه رابع عشر شعبان ، وبينه وبين الهنود نهر عميق، فعبر إليهم بعض أصحابه وشغلهم بالقتال ، ثم عبر هو وباقي العسكر إليهم، فاقتتلوا عامة نهارهم ، وانهزم بروجيبال ومن معه ، وكثر فيهم القتل والأسر ، وأسلموا أموالهم وأهليهم فغنمها المسلمون، وأخذوا منهم الكثير من الجواهر ، وأخذوا مايزيد على مائتي فيل ، وسار المسلمون يقتصون آثارهم ، وانهزم ملكهم جريحا وتحير في أمره ، وأرسل إلى يمين الدولة يطلب الأمان فلم يؤمِّنه ، ولم يقنع منه إلا بالإسلام، وقُتِل من عساكره مالا يُحصَى ، وسار بروجيبال ليلحق ببيدا، فانفرد به بعض الهنود فقتله .

فلما رأى ملوك الهند ذلك تابعوا رسلهم إلى يمين الدولة يبذلون له الطاعة والإتاوة .

وسار يمين الدولة بعد الوقعة إلى مدينة باري، وهي من أحصن القلاع والبلاد وأقواها ، فرآها من سكانها خالية، وعلى عروشها خاوية، فأمر بهدمها وتخريبها وعشر قلاع معها متناهية الحصانة، وقتل من أهلها خلقا كثيرا .

وسار يطلب بيدا الملك فلحقه وقد نزل إلى جانب نهر وأجرى الماء من بين يديه فصار وحلا، وترك عن يمينه وشماله طريقا يبسا يقاتل منه إذا أراد القتال وكان عدة من معه ستةً وخمسين ألف فارس وأربعة وثمانين ألف راجل ، وستةً وأربعين وسبعَمائة فيل، فأرسل يمين الدولة طائفة من عسكره للقتال، فأخرج إليهم بيدا مثلهم، ولم يزل كل عسكر يمد أصحابه حتى كثر الجمعان واشتد الضرب والطعان، فأدركهم الليل وحجز بينهم .

فلما كان الغد بكَّر يمين الدولة إليهم فرأى الديار منهم بلاقع، وركب كل فرقة منهم طريقا مخالفا لطريق الأخرى، وخزائن الأموال والسلاح بحالها ، فغنموا الجميع ، واقتفوا آثار المنهزمين ، فلحقوهم في الغياض والآجام وأكثروا فيهم القتل والأسر ، ونجا بيدا فريدا وحيدا، وعاد يمين الدولة إلى غزنة منصورا [١] .

وهذا الخبر يبين لنا دقة رصد المسلمين الحربي، حيث عرف يمين الدولة عن تحركات ملوك الهند نحو التحالف مع الملك بيدا بالرغم من بُعْد المسافة ، كما يدل على ضعف ملوك الهند في ذلك ، حيث لم يعلم الملك بروجيبال عن تحرك المسلمين إلا بعد أن قابلوه أو قربوا

---

(١) الكامل في التاريخ ٧/٣٠١ - ٣٠٢ .

منه، كما أن في هذا الخبر مثلاً من شجاعة أبطال المسلمين حيث عبَر النهر إلى جيش الهند بعضُ أصحاب يمين الدولة، فشغلوهم بالقتال حتى عبر بقية جيش المسلمين ، كما أن في هذا الخبر أمثلةً واضحة من سلاح الرعب الذي نصر الله تعالى به المسلمين، وأبرز ذلك هروب ملك الهند بيدا الذي جمع من السلاح والجنود مالم يجمعه الملوك قبله، فلما رأى ضراوة قتال المسلمين أصيب بالرعب وأيقن بالهزيمة، فاغتنم فرصة ظلام الليل ليهرب هو وجيشه في كل ناحية .

جهاده في بلاد أخرى :

من أخبار هذا المجاهد الكبير يمين الدولة محمود بن سبكتكين ماذكره الحافظ ابن كثير في حوادث سنة عشر وأربعمائة أنه غزا مدينة في الهند فيها ألف قصر مَشِيْد وألف بيت للأصنام، وفيها من الأصنام شيء كثير ، ومَبْلغ ماعلى الصنم من الذهب مايقارب مائة ألف دينار، ومبلغ الأصنام من الفضة زيادة على ألف صنم ، وعندهم صنم معظم يؤرخون له وبه - بجهالتهم - ثلاثمائة ألف عام ، وقد سَلَب ذلك كلَّه محمود بن سبكتكين وذكر أن عدد القتلى من الهنود خمسون ألفا ، وأسلم منهم عشرون ألفا [١] .

وذكر العالم المؤرخ ابن الأثير أن ابن سبكتكين غزا الهند في سنة أربع عشرة وأربعمائة ، فأوغل فيها فغنم وقتل ، حتى وصل إلى قلعة على رأس جبل منيع ، ليس له مصعد إلا من موضع واحد، وهي كبيرة تسع خلقا ، وبها خمسمائة فيل، وفي رأس الجبل من الغلاَّت

---

(١) البداية والنهاية ١٢/٨- ٩ .

والمياه وجميع مايحتاج الناس إليه ، فحصرهم وأدام الحصار وضيق عليهم واستمر القتال ، فقُتل منهم كثير ، فلما رأوا ما حلَّ بهم أذعنوا له وطلبوا الأمان، فأمَّنهم وأقر مُلكهم فيها على خراج يأخذه منهم[1].

جهاده في سُومَنَات :

من أبرز مواقف السلطان محمود الجهادية قضاؤه على أعظم أصنام الهند « سومنات » ، وفي خبر ذلك يقول المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة ست عشرة وأربعمائة : في هذه السنة فتح يمين الدولة في بلاد الهند عدة حصون ومدن، وأخذ الصنم المعروف بسومنات ، وهذا الصنم كان أعظم أصنام الهند، وهم يحجُّون إليه في كل ليلة خسوف فيجتمع عنده ماينيف على مائة ألف إنسان ، وتزعم الهنود أن الأرواح إذا فارقت الأجساد اجتمعت إليه على مذهب التناسخ، فينشئها فيمن شاء ، وأن المدَّ والجزر الذي عنده إنما هو عبادة البحر على قدر استطاعته، وكانوا يحملون إليه كل عِلْق نفيس ، ويعطون سدنته كل مال جزيل ، وله من الموقوف مايزيد على عشرة آلاف قرية، وقد اجتمع في البيت الذي هو فيه من نفيس الجوهر مالايحصى قيمته .

ولأهل الهند نهر كبير يسمى كَنَكْ يعظمونه غاية التعظيم ، ويُلقون فيه عظام من يموت من كبرائهم ، ويعتقدون أنها تساق إلى جنة النعيم ، وبين هذا النهر وبين سومنات نحو مائتي فرسخ، وكان يُحمل من مَائِه كل يوم إلى سومنات مايغسل به .

ويكون عنده من البرهميين كل يوم ألف رجل لعبادته وتقديم

---

(١) الكامل في التاريخ ٧/٣١٥ .

الوفود إليه ، وثلاثمائة رجل يحلقون رؤوس زواره ولحاهم، وثلاثمائة رجل وخمسمائة أمَــة يغنون ويرقصون على باب الصنم، ولكل واحد من هؤلاء شيء معلوم كل يوم .

وكان يمين الدولة كلــما فتح من الهند فــتحا وكــسر صنمــا يقول الهنود : إن هذه الأصنام قــد سخط عليــها ســومنات، ولو أنه راض عليها لأهلك من قصدها بسوء ، فلما بلغ يمين الدولة عزم على غزوه وإهلاكه ظنا منه أن الهنود إذا فقدوه ورأوا كذب ادعائهم الباطل دخلوا في الإسلام ، فاســتخار الله تعالى وســار من غزنة عاشر شــعبان من هذه السنة في ثلاثين ألف فارس من عســاكره سوى المتطوعة، وسلك سبيل الملتان فوصلها منتصف شهر رمضان .

وفي طريقه إلى الهند بَرِّيــة قِفر لا ساكن فــيها ولاماء ولامــيرة، فتــجهَّز هو وعــسكره على قدرها، ثم زاد بعــد الحاجة عــشرين ألف جمل تحمل الماء والميرة وقصد « أنهلوارة » ، فلما قطع المفازة رأى في طرفها حصونا مشحونة بالرجال ، وعندها آبار قد غوروها ليتعذر عليه حصرها ، فيــسَّر الله تعالى فتحها عند قــربه منها بالرعب الذي قذفه في قلوبهم ، وتسلَّمها وقتل سكانها وأهلك أوثانها، وامتاروا منها الماء ومايحتاجون إليه .

وسار إلى أنهلوارة فــوصلها مستهل ذي القــعدة، فرأى صاحَــبها المدعوّ « بهــيم» قد أجفل عنــها وتركهــا وأمعن في الهرب ، وقــصد حصنا له يحتمي به ، فاستولى يمين الدولة على المدينة .

وسار إلى « سومنات » فلقي في طريقه عدة حصون فيها كثير من

الأوثان شبه الحُجَّاب والنقباء لسومنات ، على ماسوَّل لهم الشيطان، فقاتل من بها وفتحها وخرَّبها وكسر أصنامها ، وسار إلى سومنات في مفازة قفرة قليلة الماء ، فلقي فيها عشرين ألف مقاتل من سكانها لم يدينوا للملك ، فأرسل إليهم السرايا فقاتلوهم فهزموهم وغنموا أموالهم ، وامتاروا من عندهم وساروا حتى بلغوا « دبولواره» وهي على مرحلتين من سومنات ، وقد ثبت أهلها ظنّاً منهم أن سومنات يمنعهم ويدفع عنهم ، فاستولى عليها وقتل رجالها وغنم أموالها .

وسار عنها إلى سومنات فوصلها يوم الخميس منتصف ذي القعدة، فرأى حصنا حصينا مبنيا على ساحل البحر، بحيث تبلغه أمواجه، وأهله على الأسوار يتفرجون على المسلمين واثقين أن معبودهم يقطع دابرهم ويهلكهم .

فلما كان الغد - وهو الجمعة - زحف وقاتل من به، فرأى الهنودُ من المسلمين قتالا لم يعهدوا مثله ، ففارقوا السور فنصب المسلمون عليه السلاليم ، وصعدوا إليه ، وأعلنوا بكلمة الإخلاص ، وأظهروا شعار الإسلام ، فحينئذ اشتد القتال وعظم الخطب، وتقدم جماعة الهنود إلى سومنات فعفَّروا له خدودهم وسألوه النصر ، وأدركهم الليل فكف بعضهم عن بعض .

فلما كان الغد بكَّر المسلمون إليهم وقاتلوهم ، فأكثروا في الهنود القتل وأجلوهم عن المدينة إلى بيت صنمهم سومنات، فقاتلوا على بابه أشد قتال ، وكان الفريق منهم بعد الفريق يدخل إلى سومنات فيعتنقونه ويبكون ويتضرعون إليه ، ويخرجون فيقاتلون إلى أن

يُقتلوا، حتى كاد الفناء يستوعبهم فبقي منهم القليل فدخلوا البحر إلى مركبين لهم لينجوا فيهما ، فأدركهم المسلمون فقتلوا بعضا وغرق بعض.

وأما البيت الذي فيه سومنات فهو مبني على ست وخمسين سارية من الساج المصفح بالرصاص، وسومنات من حجر، طوله خمسة أذرع، ثلاثة مدورة ظاهرة وذراعان في البناء ، وليس بصورة مصورة، فأخذه يمين الدولة فكسره وأحرق بعضه وأخذ بعضه معه إلى غزنة فجعله عتبة الجامع .

وكان بيت الصنم مظلمًا وإنما الضوء الذي عنده من قناديل الجوهر الفائق ، وكان عنده سلسلة ذهب فيها جرس وزنها مائتا مَنّ ، كلما مضى طائفة معلومة من الليل حُرّكت السلسلة فيصَوِّت الجرس فيقوم طائفة من البرهميين إلى عبادتهم، وعنده خزانة فيها عدة من الأصنام الذهبية والفضية ، وعليها الستور المعلَّقة المرصعة بالجوهر كل واحد منها منسوب إلى عظيم من عظمائهم .

وقيمة مافي البيوت يزيد على عشرين ألف ألف دينار فأخذ الجميع، وكانت عِدَّة القتلى تزيد على خمسين ألف قتيل [1] .

وبعد ففي هذا الخبر مواقف وعبر منها :

أولا : إقدام محمود بن سبكتكين على قطع تلك المسافات البعيدة المشتملة على الصحاري المهلكة التي لا ماء فيها ولاطعام ، ولقد كان يعلم خطورة قطع تلك الصحاري فاستعد لها الاستعداد الكافي ، وإذا

---

(١) الكامل في التاريخ ٧/ ٣٢٠ - ٣٢١ .

عرفنا أن استعداده الاحتيـاطي عشرون ألف جمل يَحْمِل الماء والطعام فإننا نعرف ضخامة العتاد الذي أعده يمين الدولة لتلك الرحلة الجهادية الشاقة .

ثانيًا : حـرص يمين الدولة على نشر الإسلام ، فـقد كان سـفره ذلك وتحمُّله تلك المشاقّ العظيمة للقضاء على ذلك الصنم الكبير، من أجل أن يدرك الهنـود أنه ليس هناك آلهـةٌ مع الله تعـالى يـنصـرون عابديهم أو ينفعونهم ، فيدفعهم ذلك إلى الإسلام .

ثالثًا : نَصْر الله تعالى أولئك المجاهدين بسلاح الرعب واضح في عدة مواطن ، وهذا دليل على صلاح ذلك الجيش وصدق نية أفراده.

رابعًا : في تلك المعركـة الفاصلة حَوْل أكبر أصـنام الهند اجتمع عِبَاد الله تعالى الذين يعبدونه ويستلهـمون منه النصر والتأييد مع عباد ذلك الصنم الذين يعـبدونه ويطلبون منه النـصر والتأييـد ، وكان في يقـينهم أن من احـتمى بذلك الـصنم لايُغلَب، بل كـانوا يظنون أنهم ليسوا بحاجة إلى أن يدخلوا مع العدو المهاجم في معارك، لاعتقادهم بأن تلك الساحاتِ ستكون مقبرة للغزاة بمجرد غضبةٍ من ذلك الصنم، ولذلك وقفوا على الأسوار يتـفرجون على المسلمين انتظارا منهم لتلك اللحظة التي يتحوَّلون فيها إلى حطام مبدَّد وركام ملبَّد .

فـإذا بهم يرون مـن المسلمين قـتـالا منعـدم النـظيـر ، وإذا بهم يشاهدونـهم وهم يصعدون إلى الـسور وهم يكبِّرون الـله جل وعلا ويوحدونه .

وعــاد الكفار أدراجــهم يعــانقون صــنمهم ويطلبــون منه النصــر والحماية ، ولكن لاحياة لمن تنادي .

إنه لعجب أن ينحدر الفكر الـبشري فيتوقع أن صنمــا من الجماد يستطيع نصره وإنقاذه ، ولقد كانت تلك العقــيدة الساذجة مشتركة بين أمم العــالم قبل الإســلام ، فزالت تلــك العقــيدة بدخــول الناس في الإســلام ، ولكنها بقــيت في بلاد الهند آنذاك حــيث لـم يصل الفــتح الإسلامي إلا إلى أطرافها الغربية .

إن أي عــاقل يتصــور هذا الموقف يدرك الفــرق الشاسع بين قــوم يستلهمــون النصر من حجر ، وقــوم يستلهمونه من خــالقهم وخالق أعدائهم وخالق كل شيء جل وعلا .

ولقد ظهر الحق وزهق الباطل حينما انتصر عباد الله سبحانه على عباد الأصــنام ، وخسر أولئك الكفار دنيــاهم وآخرتهم ، كما خــسر عُبَّاد الأصنام من قبلهم .

خامــسًا : حطَّم ذلك القائد الكبــير يمين الدولة أكــبر أصنام الهند وماحوله من الأصنام ، كــما حطَّم قبل ذلك آلاف الأصنام، ولـم يمرَّ عليَّ أن قائدا مسلما حطم من الأصنام بقــدر ماحطم السلطان محمود ابن سبكتكين ، ويكفي مثالا على ذلك أنه لما فتح بلاد قنوج وجَدَ بها مايقرب من عشرة آلاف صنم فأبادها كمــا تقدم ، وهذه منقبة عظيمة لهذا القائد الكبير .

ولفتــة جليلة حينما حــمل السلطان محمــود جزءًا من صنم الهند الكبير « سومنات» فـجعله عتبة لباب المسجــد الجامع في غزنة، وكأنه

أراد أن يقول للناس : هذا الصنم الذي يعبده ويقدسه مئات الألوف من البشر هو الذي نطؤه نحن بأقدامنا ، وهذه صورة معبرة من إذلال الكفر وأهله .

سادسًا : لقد مَنَّ الله تعالى على يمين الدولة بتلك الانتصارات المذكورة لكونه جمع بين القوتين : المادية والمعنوية ، فهو لم يهمل الأسباب المادية ، بل أعد كل ماتمكن منه من السلاح والعتاد والجنود المدربين ، إلى جانب اهتمامه بشكل أبلغ بالقوة المعنوية ، حيث كان متوكلا على الله تعالى رافعا شعار توحيده ، يستلهم منهم النصر والتأييد ، وقبل ذلك كان مستقيما عادلا في حكمه .

من مواقفه في الإصلاح والعدل :

ومن مواقفه في الإصلاح والعدل ماذكره الحافظ ابن كثير بقوله: وبنى على جيحون جسرا تعجز الملوك والخلفاء عنه ، غرم عليه ألفي ألف دينار ، وهذا شيء لم يتفق لغيره .

قال : وكان عادلا جيدا اشتكى إليه رجل أن ابن أخت الملك يهجم عليه في داره وعلى أهله في كل وقت، فيخرجه من البيت ويختلي بامرأته ، وقد حار في أمره ، وكلما اشتكاه لأحد من أولي الأمر لايجسر أحد عليه خوفا وهيبة للملك ، فلما سمع الملك ذلك غضب غضبا شديدًا وقال للرجل : ويحك متى جاءك فأتني فأعلمني، ولاتسمعن من أحد منعك من الوصول إلي، ولو جاءك في الليل فأتني فأعلمني ، ثم إن الملك تقدم إلى الحجبة وقال لهم: إن هذا الرجل متى جاءني لايمنعه أحد من الوصول إلي من ليل أو نهار،

فذهب الرجل مسروراً داعيًا ، فما كان إلا ليلة أو ليلتان حتى هجم عليه ذلك الشاب فأخرجه من البيت واختلى بأهله، فذهب باكيا إلى دار الملك فقيل له إن الملك نائم ، فقال: قد تقدم إليكم أن لاأمنع منه ليلا ولانهاراً ، فنبهوا الملك فخرج معه بنفسه وليس معه أحد، حتى جاء إلى منزل الرجل فنظر إلى الغلام وهو مع المرأة في فراش واحد ، وعندهما شمعة تَقدُ، فتقدم الملك فأطفأ الضوء ثم جاء فاحتز رأس الغلام وقال للرجل : ويحك الحقني بشربة ماء ، فأتاه بها فشرب ثم انطلق الملك ليذهب ، فقال له الرجل : بالله لِمَ أطفأت الشمعة ؟ قال: ويحك إنه ابن أختي ، وإني كرهت أن أشاهده حالة الذبح ، فقال : ولِمَ طلبتِ الماء سريعًا ؟ فقال الملك : إني آليت على نفسي منذ أخبرتني أن لا أطعم طعامًا ولاأشرب شرابًا حتى أنصرك ، وأقوم بحقك ، فكنت عطشانًا هذه الأيام كلها، حتى كان ماكان مما رأيت . فدعا له الرجل وانصرف الملك راجعًا إلى منزله، ولم يشعر بذلك أحد [1] .

فهذا الخبر يدلنا على كمال اتصاف السلطان محمود بن سبكتكين بالعدل وإنصاف المظلومين من ظالميهم، فحينما سمع بهذه الشكوى من ذلك المتظلم اهتم كثيراً وقام بالبحث والتحري بنفسه ، فلم تغلبه العاطفة نحو أقاربه على الحكم بالحق الذي دفعه إليه إيمانه الراسخ. . لم تغلبه من إقرار العدالة وإنصاف المظلومين وإن كانوا من عامة الناس، وعقابِ الظالمين وإن كانوا من أقرب أقاربه .

---

(١) البداية والنهاية ٢/ ٣٢ - ٣٣ .

لقد تأثر كثيراً من إقدام ابن اخته على تلك الجريمة النكراء منتهزاً فرصة قرابته منه فمنع نفسه الطعام والشراب حتى ينصف المظلوم ويردع الظالم .

وإن اتصاف هذا السلطان بالعدل وإنكار المنكر والتخلق بمكارم الأخلاق كان سببا في انتصاراته العظيمة على الأعداء، وبلوغه في الفتوحات حدا لم يصل إليه غيره ، لأن من خضع لشريعة الله تعالى وطبقها على نفسه وعلى من هم تحت ولايته ينال معية الله جل وعلا بالحفظ والنصر والتأييد .

أما إصلاحاته التي ذكر منها ابن كثير بناء ذلك الجسر العظيم فإنها تدل على اهتمامه بأمور رعيته ورحمته بهم ، ورغبته الصادقة في الأعمال الصالحة ، رحمه الله رحمة واسعة .

* * *

– جهاد مسعود بن محمود وابناه مودود وإبراهيم في بلاد الهند –

١ – ذكـر المؤرخ ابن الأثيـر في حوادث سـنة خمس وعـشـرين وأربعمائة أن السلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين سار بجيشه إلى بلاد الهند، وقـصـد قلعـة سـرسـتي، وهي من أمنع حـصـون الهند وأحصنهـا فحاصرها ، وقـد كان أبوه حاصرها غـير مرة لم يتهـيأ له فتـحها، فلمـا حاصرها مـسعود راسله صـاحبهـا وبذل له مالاً على الصلح فأجـابه إلى ذلك ، وكان فيهـا قوم من التجار المسلمـين فعزم صاحبها على أخذ أموالهم وحـملها إلى مسعود من جملة القرار الذي عليه، فكتب التجار رقعة في نشابة ورموا بها إليه يعرفونه فيها بضعف الهنود بهـا وأنه إن صابرهم ملكهـا، فرجع عن الصلح إلـى الحرب، وطم خندقها بالشجر وقصب السـكر وغيره ، وفتح الله عليه ، وقتل كل من فيها وسبى ذراريهم ، وأخذ ما جاورها من البلاد [١] .

٢– ذكـر المؤرخ ابن الأثـيـر في حـوادث سنة خـمس وثلاثين وأربعمائة أنه اجتـمع ثلاثة ملوك من ملوك الهند وقصدوا «لهاوور»[٢] وحاصروها، فـجمع مقدم العـساكر الإسلامـية بتلك الديار من عنده منهم وأرسل إلى صاحبـه مودود بن مسعود بن محـمود بن سبكتكين يستنجد به ، فسير إليه العساكر، فاتفق أن بعض أولئك الملوك فارقهم وعاد إلى طاعة مودود، فرحل الملكان الآخران إلى بلادهما ، فسارت العساكـر الإسلامية إلى أحدهما ويعـرف بدوبال هربانه فانهزم منهم،

---

(١) الكامل في التاريخ ٨/ ٥ – ٦ .

(٢) لعلها مدينة لاهور الحالية .

وصعـد إلى قلعة له منيعـة هو وعساكـره وكانوا خمسـة آلاف فارس وسبعـين ألف راجل ، وحاصرهم المسلمون وضـيقوا عليهم وأكـثروا القـتل فيـهم ، فطلب الـهنود الأمان على تـسليم الحصن ، فـامـتنع المسلمون من إجابتـهم إلى ذلك إلا بعد أن يضيفوا إليـه باقي حصون ذلك الملك التي لهم ، فحـملهم الخوف وعدم الأقوات إلى إجـابتهم إلى ماطلبوا ، وتسلموا الجميع وغنم المسلمون الأموال، وأطلقوا مافي الحصون من أسرى المسلمين وكانوا خمسة آلاف رجل .

فلما فرغوا من هذه الناحية قصدوا ولاية الملك الثاني واسمه ثابت بالْري فتقـدم إليهم ولقيهم واقـتتلوا قتالا شـديدًا ، وانهزمت الهنود، وانجلت المعركـة عن قتل ملكهم وخمـسة آلاف قتيل وجـريح، وأُسِرَ ضعفاؤهم ، وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ودوابهم .

فلمـا رأى باقي الملوك من الهند مـالقي هؤلاء أذعنوا بالطاعـة ، وحـملوا الأموال وطلبـوا الأمان والإقـرار على بلادهم فأجـيبـوا إلى ذلك[١] .

٣ - ذكـر المؤرخ ابن الأثيـر في حـوادث سنـة اثنتين وسـبـعين وأربعمائة أن السلطان إبراهيم بن مسعـود بن محمود بن سبكتكين غزا بلاد الهند فحاصر قلعة « أجود » وهي على مائة وعشرين فرسخا من «لهاوور» وهي قلعة حصينة في غاية الحصـانة كبيرة تحوي عشرة آلاف رجل من المقاتلة ، فقاتلوه وصبـروا تحت الحصار، وزحف إليهم أكثر

(١) الكامل في التاريخ ٨/٢٨ .

من مرة فـرأوا من شدة حربه مـاملأ قلوبهم خوفـا ورعبا ، فـسلموا القلعة إليه في الحادي والعشرين من صفر .

ثم ذكر أنه فتح قلعة روبال وموضعين آخرين يقال لاحدهما «دره نوره » والآخر « وره » وكان النصر حليفه في كل تلك الحروب [1] .

وهكذا قام السلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين بإكمال مابدأه أبوه وثبت حكم المسلمين فـي الهند ، وكذلك مـاقام به ابناه مـودود وإبراهيم ، وهذا الحـكم الإسـلامي في بلاد الهند الـذي امـتـد تلك السنوات الطويلة مكن لوجود الإسلام في الهند حيث استمر بعد ذلك دخول الهنود في الإسلام وقيام الحكم الإسلامي فيها .

* * *

---

(١) الكامل ٨/ ١٢٧ .

الجهاد والفتوحات

بعد العباسيين

– جهاد السلطان محمد شاه البهمنيّ –

هو محمـد بن الحسن البهمنيّ، السلطان المجاهد في سبيل الله. قام بالملك بعد والده سنة تسع وخمسين وسبعمائة بأرض دكن، وافتتح أمره بالعدل والسخاء، وسار إلى بلاد تلكانه سنة ثلاث وستين، فقاتل أهلها وغنم من الذهب والجواهر الثمينة مالا يحصى، وعاد إلى كَلبركَـه، ثم صار في سنة أربع وسبعين إلى تلك البلاد، ولما عرف صاحبها عجزه عن المقاتلة أرسل إليه يطلب المصالحة على مال يؤديه، فأبى محمد شاه ثم أجابه إلى ذلك على ثلاثمائة فيل ومائتي فرس وثلاثة عشر مائة هَنّ وبلدة كَولكنده، فأرسل إليه كل ذلك صاحبها وأرسل إليه سريرًا مرصعًا من الذهب والجواهر، فرجع إلى كَلبركَه وأرسل خمس الغنائم إلى الشيخ سراج الدين الجنيدي ليفرقها على من يستحقها من السادة والمشايخ.

وفي تلك السنة قدم إليه صاحب بيجانكَر وأخذ قلعة مدكل عنوة وقتل ثمانمائة من المسلمين ممن كانوا فيها، فلما سمع محمد شاه اشتعل غضبًا وحلف أنه يقتل من الوثنيين مائة ألف في قصاص المقتولين، ثم جعل ولده المجاهد وليَّ عهده وأوصى إليه وسار بتسعة آلاف فارس إلى صاحب بيجانكَر وكان معه ثلاثون ألف فارس وتسعمائة ألف راجل[1]، ونهر كشنه كان عظيمًا كثير الزيادة لايخطر على قلب أحد أن محمد شاه يقدر على عبوره، وأيده الله سبحانه على العبور فأقام على شاطئه، وألقى الله تعالى الرعب في قلب

(١) هكذا جاء هذا الرقم في الخبر، ولعل فيه خطأ أو مبالغة من الراوي.

صاحب بيـجانكَر فهابه وبعث الأحـمال والأثقال كلها إلى بيـجانكَر، وأقام بمعسكره ليستشير أصحابه في الحرب، فإن رضوا بالحرب حاربوه وإلا يذهب إلى بيجـانكَر ويتحـصن بها، والأحمـال التي بعثـها إلى بيجانكَر لم تتجاوز ميلين لشـدة الوحل ذلك اليوم، فلما سمع محمد شاه أنه ينتهز الفرصة للفرار بكر إليه بعـساكره، فتركوا الفيلة والأموال وماكان معهم من الأحمال وفروا إلى قلعة أودني فأقام محمد شاه في معسكره وقبض على أمواله وأمـر بالقتل ، فقتل من الوثنيين في ذلك اليوم سبعين ألفًا من الرجال والنساء والولدان من غير تفريق، وحصل له من المغانم ألفان من الفـيلة وثلاثمائة من عجلات المدافع وسبـعمائة من الأفراس .

ثم سار إلى مدكل وأقـام بها، ولما انقضت أيام المطر قـصد قلعة أودني فلما سمع صاحب بيجانكـر استخلف بها ابن أخيه وذهب إلى ناحـية من نواحي بلاده، فـسار مـحـمد شـاه إلى بلاد بيجـانكر مع المقاتلة، وأرسل الأحمال والأفيال إلى كَلبركَه وقصد معسكر صاحبها، فـبعث إليـه صاحب بيـجانكـر مقـدم عسـاكره بأربعين ألف فـارس وخمسـمائة ألف راجل، وكان عساكر مـحمد شاه خمسـة عشر ألف فارس وخمسين ألف راجل مع مالحق به من بعض عساكر الأمراء بعد خروجه عن كَلبركَه ، فالتقوا واقتـتلوا وانهزم الوثنيون ، وأكثر محمد شاه في القتل فلم ينج منهم إلا القليل النادر، وأقام بها سبعة أيام .

وسار محمد شاه في أثر صـاحب بيجانكَر وحاصرها وضيق على أهلهـا وأدام الحصـار إلى شهـر كـامل، ثم دبر الحيلة وتمارض وأمـر

برجوع العساكر من بيجانكَر ، فلما سمع المشركون ذلك طمعوا في قتلهم ونهب أموالهم، فخرج صاحب بيجانكَر من القلعة وتعقب المسلمين حتى وصل إلى ماء تمهندره وعبرها ووصل إلى أرض قفراء، فقام محمد شاه من فراشه وجلس للناس وقت المساء وقويت عساكره برؤيته فأمرهم أن تجهزوا للحرب، وسار بعساكره في الليل إلى معسكر المشركين وكانوا مشتغلين بالرقص والغناء، ولم يعلموا بمجيئه إلا حين وقف على رؤوسهم في البكرة، فاختلت حواسهم وفر كل واحد منهم إلى ناحية من نواحي الأرض وتركوا جميع مالهم من الأموال والأحمال، وأمر محمد شاه بقتلهم فقتل منهم حينئذ عشرة آلاف، وغنم محمد شاه أموالاً طائلة، ثم تعقبهم إلى أربعين ميلاً من بيجانكر وقتل وغنم، فاضطروا إلى الصلح وأرسل كشن راي إلى محمد شاه يطلب الصلح على مال يؤديه عاجلاً، فرجع محمد شاه إلى كَلبركَه واشتغل بمهمات الدولة، واستقل بالملك سبع عشرة سنة وتسعة أشهر (١) .

في هذا الخبر مواقف جهادية عالية منها :

١ - جرأة السلطان محمد شاه على ملاقاة جيش يتكون من ثلاثين ألف فارس وتسعمائة ألف راجل - كما جاء في الرواية- بتسعة آلاف فارس ، وهذا الرقم المذكور لجيش الأعداء قد يكون فيه مبالغة، ولكنه يدل على أن جيش الأعداء كان كبيراً وأن الفارق بين الجيشين

(١) المختار المصون للدكتور محمد بن حسن بن عقيل / ٢٩٩-١٣٠١ نقلا عن الإعلام بما في تاريخ الهند من الأعلام لعبد الحي الندوي .

كبير جدًا ، وهذا يدل على جسارة عظيمة ، وشجاعة عالية، واختيار جيد للجنود ، ولاشك أن الروح المعنوية لجيش المسلمين كانت عالية جدّا ، وماذلك إلا من قوة تمسكهم بالإسلام ، حيث كان لعلماء الدين آنذاك دور كبير في تربية الأمة على الاستقامة والإخلاص .

٢ - إقدام السلطان محمد شاه على عبور نهر كشنه مع كثافة وزيادة مائه ، بحيث يغلب على الظن - حسب المعتاد - عدم القدرة على العبور ، وذلك - بعد توفيق الله تعالى - شاهد على شدة الإقدام وقوة الحماس عند المسلمين ، ولعل هذا الإقدام الشديد الذي يصل إلى حد المغامرة كان سببا من أسباب إصابة الأعداء بالرعب من المسلمين .

٣ - دقة رصد السلطان محمد شاه، حيث علم بما يدور في معسكر الأعداء من المشاورة على الإقدام على قتال المسلمين أو التحصن بمدينة « بيجانكر» ، ثم ماكان عليه هذا السلطان من الحزم واغتنام الفرص المناسبة ، حيث أقدم على قتال الأعداء مع أول النهار قبل أن ينسحبوا وكانوا في حال تردد وانهزام معنوي، فكان ذلك ممهدا لهزيمتهم عسكريا ، حيث لاذوا بالفرار وتركوا فِيَلتهم التي كانت هي أسلحتهم الثقيلة وتركوا أموالهم ، وأكثر المسلمون من القتل فيهم وهم منهزمون ، وكون المسلمين قتلوا بعض نساء العدو وأطفالهم مخالفة شرعية حيث لايجوز قتل النساء والصبيان إلا إذا شاركوا في القتال، ولعلهم كانوا قد شاركوا ، أو لعل ذلك صدر من بعض جنود المسلمين جهلا منهم بالحكم الشرعي في ذلك .

٤ - لم يكتف السلـطان محـمـد شـاه بهـذا النصـر المؤزر على أعدائه، بل سار خلفهم ليقضي على ماتبقى من قوتهم حتى لايفكروا بغزو المسلمين مـرة أخرى ، وقد اعتبـر أن الخطر على المسلمين مازال باقيا مادام رأس أعدائه قائما على حكم بلاده ، فسار إليه حتى حاصر عاصمـة ملكه « بيجانكر» ، وهذا التصمـيم منه على إنهاء ملك تلك البلاد دليل على خبرته الحربية والإدارية .

٥ - في المعركة الأخـيرة مع عدوه استعمل الخداع الحـربي حينما حالت التحصينات القوية والجدر السميكة بينه وبين عدوه، حيث أظهر أنه مريض ورجع إلى بلاده، وجازت هذه الخدعة على أعدائه فخرجوا يتعقبون المسلمين ليوقعوا بهم ، فلما وصلوا إلى المكان الملائم للحرب نهض السلطان مـحمد من فـراشه وصـار يزاول مهامـه القيـادية بقوة وحزم، ثم داهم الكفار وهم غارقـون في لهوهم فأوقع بهم فلم يكن لهم مقاومة ، بل فروا وتركوا أمتعتهم .

وهكذا انتهت هذه المعارك المثيرة بين السلطـان محمد شاه وعدوه صـاحب « بيجـانكر » بانتـصـار حاسم للـمسلمين في جـمـيع تلك اللقاءات .

* * *

- جهاد السلطان محمود بن محمد الكجراتيّ -

هو السلطان العادل المجاهد أبو الفتح سيف الدين محمود بن محمد بن أحمد الكَجراتي المشهور بمحمود بيكره .

كان من خيار السلاطين ، ولد بكَجرات سنة تسع وأربعين وثمانمائة، وقام بالملك بعد داود شاه سنة اثنتين وستين وثمانمائة وكان يوما مشهودًا ، واستقل بالملك خمسًا وخمسين سنة ، وفتح قلعة باردو وفتح قلعة كرنال وكانت من أمنع قلاع الهند، وأنشأ مدينة في سفح الجبل وسماها مصطفى آباد وجعلها دار المملكة .

وفتح قلعة بيت ودواركا وفيها صنم من أشهر أصنام المشركين في الهند، ، يحجون إليه ويرون من العبادة تكلف المشاق في الوصول إليها، حتى إن منهم من ينبطح على وجهه ويمد يديه أمامه ويقف ثم يضع قدمه على منتهى يده وينبطح ويمد يده ويقف ، وهكذا يقطع الطريق إليها ولو من مسافة أشهر ، فملكها سنة خمس وثمانين وثمانمائة ، وسار إلى جانپانير وحاصر قلعتها ، وكانت قلعة حصينة متينة على قلة جبل (١) لاتكاد تفتح ، فضيق في الحصار وحاصرها مدة طويلة حتى فتحها سنة تسع وثمانين وثمانمائة (٢) .

وهكذا قضى السلطان محمود بن محمد الكجراتي على ذلك الصنم الذي يعظمه الوثنيون في الهند ويحجون إليه، ويتكلفون المشاق

---

(١) رأس جبل .

(٢) المختار المصون للدكتور محمد بن حسن بن عقيل موسى / ٨٧٧ ، نقلا عن « الإعلام بما في تاريخ الهند من الأعلام » للشيخ عبد الحي الندوي الحسنى .

في بلوغــه، وإن القضاء على الأوثان مــن أهم الوسائل الناجــحة في الدعوة إلى التــوحيد، لأن الأصنام هــي أكبر العــوائق التي تحول بين العقل والطموح نحــو المعاني السامية التي يدعو إليــها الإسلام ، فإذا أزيلت ولم يحــصل على من أزالــها ضــرر فــإن الناس من عــابديهــا يفهــمون بأنها لاقــيمة لهــا في الضرر والنفع ، فيــصبحــون بعد ذلك مهيئين لقبول دعوة التوحيد .

ومن مآثره الجميــلة قيامه بالعدل والإحسان وإنــفاذ أمر الشرع في السيــاسة، ومما يحكى عنه في ذلــك أنه بلغه عن بهاء المــلك بن علاء الملك ألف خان سهــراب أنه قتل سلاحداراً [1] له فطلبه، فلاذ بعماد الملك وعضد الملك واســتجار بهمــا، فلم يجدا لخلاصه سبــيلاً سوى نسبة القــتل إلى غيره، فأرضيــا شخصين على ضمان الخــلاص لهما، وقد الإقرار به سعيًا في الدية وكــانا عوّلا عليها في الخلاص فلم تقبل الدية ومضى الحكم بقــتلهما وخــلص بهاء الملك ، وبعد يســير وقف محــمود شــاه على حقــيقــة الحال وتعب إلى الغــاية وجلس للقــضاء وأمضى في الملكين حــكم القصاص ، ولم يمنعــه كونهمــا من عظماء ملوكه الخاصة به من أن يعمل بالشريعة [2] .

وهذا التــصــرف من هذا السلطان يدل على قــوة إيمانه بالإســلام وخشيته من الله تعالى ، فإن مما ينظر إليــه الساسة في تثبيت سيادتهم مداراة رؤوس مراكز القــوى في دولهم، وإن أضر ذلك بعامة الناس،

---

(١) أي حافظ الأسلحة ومتوليها .

(٢) المختار المصون / ٨٧٨ ، عن « الإعلام بما في تايخ الهند من الأعلام » .

وهذا عمل أهل الدنيا لأنهم ينظرون إلى تثبيت السلطة من غير نظر إلى الحساب في الآخرة ، أما أهل الآخرة فإنهم ينظرون إلى النجاة من المسئولية أمام الله تعالى يوم القيامة ، وهذا يتطلب منهم أن يحكموا بالعدل حتى مع الكبراء ، وإذا كانت العدالة قد تفقد المسئول دعم بعض مراكز القوى فإنها تمنحه دعم الألوف من الرعية الذين يتمتعون بعدله ، كما كانت حال هذا السلطان الذي بقي في السلطة خمسا وخمسين سنة .

ومن مكارمه أنه استقل بالملك خمسا وخمسين سنة وجاهد في الله حق الجهاد ووسع حدود ملكه إلى مالوه وإلى بلاد السند، ولكنه في تلك المدة الطويلة لم يطمح إلى بلاد المسلمين ولم يستشرف لها قط، وإذا استولى القويّ منهم على الضعيف قام بنصرة الضعيف، كما وقع له في سنة ست وستين وثمانمائة إذ وصل إليه حاجب نظام شاه البهمنيّ صاحب دكن يخبره أن محمود شاه الخلجيّ صاحب مالوه خرج إليه بعساكره، فعطف السلطان عنانه من الصيد وتوجه إلى سلطان يوربمن حضر معه، وأمر الوزير أن يلحقه بالعسكر، ولما نزل بسلطان يور قدم حاجب آخر يخبر بالحرب وأنه حاصر دار ملكه بيدر، فنهض السلطان من سلطان يور ، ولما كان منزله تهالنير قدم حاجب آخر يخبر برجوع الخلجيّ ، وذلك لأنه سمع بوصول محمود شاه الكجراتي فترك بيدر ورجع إلى مندو ، وكذلك في سنة سبع وستين وثمانمائة وصل حاجب نظام شاه يخبر أن الخلجيّ خرج بتسعين ألف فارس إلى حدود نظام شاه ، فنهض السلطان مع الحاجب وبلغ

الخلجي ذلك بفتح آباد من أعمال تلنكَانه فرجع إلى دار ملكه، فكتب السلطان إلى محمود شاه الخلجيّ مامعناه : ليس من المروءة قصد طفل لم يبلغ الحلم وقد التزمت حفظ ملكه إلى أن يبلغ مبلغ الرجال، فإن دخلت في حده خرجت إلى حدك وفيما يليك من جهات الكفر مايغني عنه ويرفع درجتك بالجهاد .

وإذا انتهيت إلى السلا مة في مداك فلا تجاوز

وكذلك لما بلغ محمود شاه سنة سبع وسبعين وثمانمائة خروج النوتك القواسه على سلطان السند بلغ عددهم أربعين ألفا، وهي طائفة بحرية تسكن الجزر بنواحي السند ، لاتجتمع على طاعة أحد، إنما هي من لصوص البحر، فنهض من مصطفى آباد يسير كل يوم ستين فرسخًا ، فلما قرب من السند تفرقوا، فتوقف السلطان بمنزله إلى أن وصل رسول ملك السند برسالة تتضمن شكره، فرجع إلى دار ملكه ، وكذلك لما بلغه أن جماعة من الأمراء تغلبت في خانديس واختل بها نظام الملك نهض إلى برهانيوز بعساكره ، وولى عليها عالم خان بن أحسن خان الفاروقي أحد وارثي المملكة ، ولقبه أعظم همايون عادل خان ، وكان ابن بنته ، وذلك في سنة أربع عشرة وتسعمائة .

ومن ذلك أنه لما توفي محمود شاه الخلجي سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة وبلغ وفاته ترحم عليه فعرض عليه بعض أرباب الرأي الخروج إلى مندو ، فأجابه : ليس من الفتوة اجتماع مصيبتين في وقت واحد على أهل بيته : فقد ذاته ، وخلل جهاته .

ومن ذلك أنه لما سمع سنة ست وتسعمائة أن ناصر الدين شاه الخلجي سم أباه غياث الدين الخلجي خرج إلى مندو وقصد تأديبه لاملكه ، وبينما كان ينهض تواترت الرسل من ناصر الدين ببراءة ذمته فتركه ، وفي كلها مفخرة عظيمة له (١) .

وبعد : فهذه أخبار عالية عن السلطان محمود بن محمد الكجراتي في الزهد في الجاه ، والعفة عن دماء الناس وأموالهم، فقد عاش الأمراء المسلمون من حوله خمسا وخمسين سنة بسلام، ونَعِمَت الهند بشيء من الاستقرار السياسي الذي ينتج عنه تمتع الناس بنعمة الأمن، حيث كان لايعتدي على الإمارات الإسلامية التي حوله، ولايترك القوي من أولئك الأمراء يعتدي على الضعيف، وهذه خصلة حميدة وسياسة عالية ، ولقد سبق بذلك هيئة الأمم في مهمتها السياسية العالمية ، ولكن بشكل مصغر اقتصر على الإمارات الإسلامية في الهند ، ولقد كان ينطلق في هذه السياسة من واجبه الإسلامي ، حيث جاء في الإسلام وجوب نصر المظلوم على الظالم، انطلاقا من قول الله عز وجل ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠] .

وقول رسول الله ﷺ : «انصر أخاك ظالما أو مظلوما، فقال رجل:

(١) المرجع السابق / ٨٧٨ - ٨٧٩ .

يارسـول الله أنصره إذا كـان مظلومـا ، أفـرأيت إن كان ظالما كـيف أنصره؟ قال: تحجزه - أو تمنعـه - من الظلم فإن ذلك نصره» أخرجه الإمام البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه [1].

* * *

(١) صحيح البخاري ، رقم ٦٩٥٢ ، الإكراه (١٢/ ٣٢٣) .

- جهاد السلطان بابر -

هو السلطان بابر بن عمر بـن أبي سعيد بن ميران شـاه بن تيمور التيموري .

تولى السلطة في « أندجان» مـن بلاد ماوراء النهر في عام تسـعة وتسعين وثمانمائة وله اثنتا عشـرة سنة، ثم وسع سلطنته فاستولى على افغانستان وبعض الهند .

وشـعر أحـد أمـراء الهند الوثنيين القـدامى بخطر قـيام حكومـة يحكمـها المسلمـون الغـزاة الوافدون من الخـارج، وإفلات الأمـر من يدهم، وهو الأمير « رانا سانكًا » حاكم « چتور» ، وكان قائدًا باسلاً محنكًا فـعبأ جيشًـا كبيرًا ، واتفق مـعه من الأفغان من كـان منتصرًا للأسرة اللودهية الأفغانيـة التي انتزع منها « بابر» الحكم، فتألف بذلك نحو مائتـي ألف محارب، وتوجه الجيش إلى « اكَـره» وتوجه « بابر» بجيـشه وهو يتـألف من اثني عشـر ألف جندي، وذلك في جـمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين وتسع مـائة للهجـرة، واستـقر في مـوضع يسمى « كانوه » أو « خانوه » .

كاد الوهن يدب إلى جيش « بابر » فـقام في الجيش وأعلن توبته عن تعاطي الخـمر الذي كان معـتادًا له، واستحلف قـادة الجيش على الصمود حتى يقـضي الله في شأنهم وحميت المعركة واستـعر القتال، وكان الفـتح للجيش الإسلامي ، وقتـل من الجيش المنافس من لايأتي تحت العد والحصر ، وكان فـتحًا حاسمًا قضى بقيـام حكومة مسلمة، على رأسها الأسرة المغولية من أحفاد بابر دامت أكثر من ثلاثة قرون،

حتى انتـزعهـا منها الإنجليـز في سنة ثلاث وسبعين ومـائتين وألف، وكانت هذه الحرب المقررة لمصير المسلمين السياسيّ في الهند في ثلاث وثلاثين وتسع مائة [1] .

في هذا الخبر بيان علو همـة السلطان بابر ، حيث شملت إمارته بلاد ماوراء النهر وافغانستـان والهند، وفي المعركة المذكورة التي كانت بينه وبين ملك الهند يظهر مثل من عظمة المسلمين الحربية، ومقدرتهم القتالية الفائقة، حيث انتـصر السلطان بابر بجيشه الذي لايتجاوز اثني عشـر ألف على ملك الهند الذي يتكون جيشـه من مائتي ألف، وإذا عرفنا أن وسائل القتال آنذاك مشـتركة بين المتحاربين ، وأنه ليس هناك تفوق ظاهر في السلاح لأحد الفريقين المتـقاتلين فإننا ندرك مدى القوة المعنوية التي يتمتع بها المسلمون .

وفي هذا الخبر إشارة إلى إدراك هذا السلطان بأن النصـر الحقيقي هو من عند الله تعـالى ،وأن عباده المـسلمين ليسوا أهلا لـنصره وهم يرتكبون المعـاصي، فكان منه أن أعلن توبته عن شرب الخـمر، وهذا يعني أنه في تلك الحال كان في إقبال شديد على اللجوء إلى الله جل وعلا والتوكل عليه .

وفي هذا الخبر بيـان أن المسلمين في الهند قبل حكم هذا السلطان كانوا في ضـعف شديد وأن ملوك الهنـد الوثنيين قد ظهروا عـليهم، فكان قدومه وانتصاره إعزازاً لوجود المسلمين في الهند، وسببا في دوام دولتهم فيـها أكثر من ثلاثة قرون، ولـهذا كانت هذه المعركة مـصيرية حسمت واقع السلطة على الهند لصالح المسلمين .

---

(١) المختار المصون / ٨٤٣ - ٨٤٤ ، عن الإعلام بما في تاريخ الهند من الأعلام .

– جهاد السلطان عالمكير –

هو الإمام المجاهد أبــو المظفر محيى الدين محــمد أورنكك زيب عالمكير بن شاهجهان .

ولد سنة ثمــان وعشرين وألف في أيــام جده جهــانكير بن أكــبر شاه، ونشأ في مهد السلطة ، وتولى الإمارة سنة ثمان وستين وألف، فافتتح أمره بالعدل والإحسان ورفع المظالم والمكوس .

فتح الفتوحات العظيمة وساس الأمور وأحسن إلى الرعية وصرف أوقاته في القيام بمصالح الناس ، وكلما فتح بلادا شرع في فتح أخرى حتى لحقت حدود مملكته في الجهة الشمالية إلى حدود خيوا وبخارى، وفي الجهة الجنوبية إلى البحر المحــيط الهندي ، وفي الجهة الغربية إلى سومنات على شاطئ بحــر الهند وفي الجهة الشرقــية إلى بوري منتهى أرض أريسه .

وكــان ماهرا بالرمي والطعن والــضرب والفــروسيــة وغيــرها من الفنون الحربية ، وكان شجاعا مقداما باسلاً لايظهر له في الهيجاء فزع ولاجــزع ولاطيش ولاخفــة ، بل من رآه ظن أنه قــد جــاء من بعض المنتــزهات وهو قد خــرج من معركــة تطير لــها العقــول وتشيب لــها الولدان.

وكان مشهوراً بالشجاعة منذ صغره، فقد جاء من أخباره أن والده شاهجهــان كان يوما يتفرج في البرج المشــرف على نهر « جَمَنْ» على مصارعــة الأفيال التي كانت في عرصــة القلعة فيما بــينها وبين النهر، والأفواج كانت قائمة بين ظهرانيها وخلق كثير يتفرجون عليها في تلك

العرصة ، وكـان عالمكير أيضا في ذلك الزحام وهو يومـئذ في الرابعة عشر من عمره وكان على فرس غلى جري العادة، فإذا بِفِيْلة قد ثارت وقصـدت الأفواج ، ففر النـاس كلهم من بين يديها إلا عالمكيـر فإنه ثبت على مقـامه ، فـتوجهت إليـه الفيلة ولفَّت فـرسه بخرطومـها، وصرع عالمكيـر من صهوة الفرس ، ثم قام وسل السـيف عليها ، ثم جاء الناس ودفعوها بالضـرب والطعن وإيقاد النار وغير ذلك ، وهذه مفخرة عظيمة في الثبات والعزيمة قلَّ أن توجد في أبناء الملوك في تلك السن .

ومن مآثره أنه نصب الجزية على الكفار بعد أن لم تكن ، وتم له ذلك مع أنه لم يتم لأحد من أسلافه .

ولقد اشـتهـر بالعبـادة والزهد وكان ذلك من أسـباب تفـوقه في الجهاد، فقد حفظ القـرآن الكريم بعد توليه السلطة، وكان يداوم على الطهارة بـالوضوء، ويحافظ علـى الأذكار والأدعيـة المأثورة عن النبي ﷺ والصلاة في الليل وكان يصلي بالناس صلاة التراويح .

وقد وُصِف بالملك العادل الزاهد ، وبلغ من الزهد مبلغا أناف فيه على ابن أدهم ، فإنه مع سعة سلطانه يأكل في شهر رمضان رغيفا من خبز الشعير من كسب يمينه .

وكان له اهتمـام جيد بالعلم ومن اهتمامـه بعلم الحديث أنه ألف كتـاب « الأربعين » قبل أن يتـولى السلطة، ثم ألف كـتابا آخـر بعد الولاية جمع فيـه أربعين حديثا وترجمـها إلى الفارسية وعلق عليـهما الفوائد النفيـسة ، وكانت له مهارة تامة بالفـقه ، ويُضرب به المثل في

استحضار المسائل الجزئية ، وقد صنف العلماء بأمره « الفتاوى الهندية» في ستة مجلدات كبار ، فاشتهرت في الأقطار الحجازية والمصرية والشامية والرومية ، وعم النفع بها وصارت مرجعا للمفتين، وقد أنفق على جمعها مائتي ألف من النقود .

وكان ماهرا في الإنشاء والترسل ، لم يكن له نظير في زمانه في ذلك، وقد جمع شيئا منها كثيرا أبو الفتح قابل خان التَّتَوي في «آداب عالمكيري » وعناية الله خان في « الكلمات الطيبات» و «الرقائم الكرائم » .

ومن مآثره أنه كان سخيا يبذل على الفقراء وأهل الحاجة العطايا الكبيرة ويسامحهم في الغرامات ، ومن ذلك أنه أبطل ثمانين نوعا من الضرائب في سنة تسع وستين وألف ، وكانت تُدِرُّ عليه ثلاثين لكًّا في كل سنة (١) .

ومن ذلك أنه بذل أموالا طائلة في إصلاح الشوارع والطرق في نواحي الهند وافغانستان ، وحفر الآبار وأجرى العيون وأسس الجسور والرباطات وغير ذلك .

كما أنه اهتم بالمساجد فبنى مساجد كثيرة وعمر القديمة منها وجعل الأرزاق للأئمة والمؤذنين ، وجعل الرواتب للمساجد لتأمين ماتحتاج إليه من بسط وسرج وغير ذلك .

وكان مقتصدا في الخيرات غير مسرف في المال، فإنه كان لايعطي الشعراء ولا أهل الغناء خلافا لأسلافه فإنهم كانوا يسرفون في ذلك،

---

(١) أي مايعادل ثلاثة ملايين .

وكان إذا أعطى العلماء يشترط أن يكون ذلك في مقابل التدريس والإفادة ، وإذا بعث الأموال إلى الحرمين الشريفين - زادهما الله تشريفا - يشترط بأن تعطى لأهل الحاجة ، ولذلك كان الناس ينسبونه إلى البخل وحاشاه من ذلك .

ولم يزل على سيرته الحميدة حتى توفى بدكن سنة عشر ومائة وألف، رحمه الله تعالى [1] .

* * *

(١) المختار المصون ١٣٧٠ - ١٣٧٨ عن « الإعلام بما في تاريخ الهند من الأعلام » بتصرف.

– جهاد السلطان أحمد شاه الدرانيّ –

هو أحمد شاه بن زمان خان الدرانيّ المعروف بالأبداليّ، نسبة إلى قبيلة كان أبوه أميراً عليها، وهو أفغانيّ الأصل ومؤسس الدولة الأفغانية بقندهار .

ولد سنة ١١٣٦هـ ، ولما توفي أبوه قبض حسين شاه صاحب قندهار عليه وأسره عنده، فلما غزا نادر شاه قندهار سنة ١١٥١هـ أطلق أحمد شاه من أسره، ووجهه إلى بلاد فارس، وجعله على فرقة من الفرسان واستأثر به وتفرس فيه النجابة والنبوغ، وكان معه عند غزوه للهند سنة ١١٥١هـ ، وتوسم فيه نظام الملك مؤسس الدولة الآصفية في حيدر آباد آثار الرشد والعظمة ، وتنبأ بأنه سيكون في يوم من الأيام ملكًا كبيراً ، ولما قتل نادر شاه حاول أحمد شاه أن يأخذ ثأره وبذل جهده فلم يساعده القدر لكثرة جيوش الفرس وقوتهم، فلجأ إلى معاقل الجبال في بلاد قومه الأفغانيين ونشر راية الاستقلال وجرى تتويجه في جامع قندهار سنة ١١٦٠هـ ولقب نفسه« أحمد شاه» و«در دوران» فاجتمع إليه كثير من الأمراء بقبائلهم العديدة، وبذل فيهم أموالاً كثيرة ، وأحسن صلتهم ، فغزا بهم الجهات المجاورة لمملكته ، فاستولى على تلك الولايات ، وعلى قسم من مملكة الفرس، وجعل مركز سلطته قندهار، ثم اجتاز إلى أراضي الهند وداس أرض بنجاب وكشمير ، وغزا الهند عدة مرات بين ١١٦١هـ و١١٧٠هـ ، وتوغل في البلاد حتى وصل إلى دهلي سنة ١١٧١هـ ، وصاحبها حينئذ عزيز الدين عالمكَير الثاني ووزيره عماد الملك الذي

نصبه ، وكان داخله الحسد لامتداد سطوة وزيره المذكور وحاول كسر شوكته فلجأ عزيز الدين إلى أحمد شاه واستماله إليه ووافقه على أفكاره فحمله على أن يبقى له السلطة ودخل أحمد شاه دهلي واستباح غنائمهما وولّى ابنه تيمور شاه على بنجاب بعد أن أقام شهراً في دهلي ، وزوج ابنه بابنة صاحب الهند .

ثم خرج من دهلي بعد أن استخلفه عليها، فلما خرج قام الوزير فطرده من دهلي وقتل سلطانه وأقام مكانه محيي السنة بن كام بخش بن عالمكَير الأول فاهتبلت « المرهتة»[1] الفرصة وطردوا الأولياء وأقاموا أولياء من الهنود فجرد أحمد شاه عساكره سنة ١١٧٣هـ وقصدهم، فمضت عليهم سنة هو في التأهبات الحربية والمقاتلات الخفيفة إلى أن تحصن المرهتة في بعض الحصون المنيعة فحاصرهم أحمد شاه وأكرههم على القتال ، فانتشبت الحرب وكان يومًا مشهودًا ، قاتلت فيه المرهتة قتالاً شديدًا وأبلوا بلاءًا حسنا ، وقد رأى أحمد شاه باب الفرج غير أنهم أطبقوا عليه من كل جانب ، وضيقوا على عساكره وبذلوا الجهد في المقاتلة فانكسرت عساكر أحمد شاه واستولى المرهتة على دهلي وأسروا العائلة الملكية بجملتها واستولوا على كل المجوهرات غير أن أحمد شاه جدد القتال فكانت المعركة الحاسمة في ساحة پاني پت في سنة ١١٧٤هـ ، واجتمعت الجيوش الإسلامية تحت رايته فظفر في هذه الواقعة بالمرهتة وقتل منهم مقتلة عظيمة ، قتل فيها من المرهتة ثمانية وعشرين ألفا ، وأسر اثنين وعشرين ألفا ، وفي تلك الأثناء خرج

---

(١) قوم من كفار الهنود .

عليه خارجة من لاهـور ، فسار إليها وانقض على المتمـردين بجموعه فهزمهم أقبح هزيمة وفتح للأفغانيين طريق كشمير ، وتوفي أحمد شاه سنة ١١٨٦هـ بقرب مدينة قندهار .

كان أحـمد شاه من كبـار القادة العسكريين ومؤسـسي الحكومات الذين نبغوا في منتـصف القرن الثاني عشر الهجـري، قد جمع شمل الأفغان ، ونظمـهم في سلك واحد، وضبط البلاد، وحـفظ الثغور، وسن القوانين العادلة ،وأقام الحسبة، وكان جامعًا بين صفات الفروسية ومكارم الأخلاق والنبل، مـحبّا للعلوم والآداب، أليفًـا ودودًا، وقورًا مهيـبًا إذا كان على منصة الحكومـة ، متواضعًا بعـيدًا عن التكلف في غير هذا الوقت،متدينًا حريصا على صحبة العلماء والصالحين، مكرمًا للسـادة والمشـايخ ، يذاكـرهم في الأمـور الدينيـة، والمسـائل العلمية،رحيمًا كثير العفو عن الأعداء، كارهًا للقسوة محبّا للمساواة، منح الحـرية الدينيـة لجـميع الطوائف، وشـجع على النكاح الثـاني للأيامى، الذي كـان يكرهه الأفغـان ويتعيـرون منه ، حمل العـلماء والمؤلفين على وضع كتب في تاريخه، وتسجـيل وقائعه وأيامه، وكان كاتبًا يؤلف، ويتمنى أن يصل إلى درجة الولاية .

ومن أشهر مآثره وأعظمها أنه هزم المرهتة الذين شكلوا أكبر خطر على الحكومـة الإسـلامـيـة في الهند وعلى الكيـان الإسـلامي هزيمة منكرة، لم تقم لهم قائمـة بعدها، وكان في توجهه إلـى الهند لحماية المسلمين سهم كبير لشيخ الإسلام وليّ الله بن عبد الرحيم الدهلوي، الذي حث الأمير نجيب الدولة على دعوته إلى الهند، وكان - لو بقي

في الهند - تاريخ آخـر للمسلمين فـيها ، ولـكنه كان مرتبـطًا ببلاده ومصالحها ، لايحب أن يعيش بعيدًا عن مركز سلطته وقوته، فعاد إلى قندهار على أثر الفـتح العظيم ، فاضطربت الأحـوال في الهند، ولم يستطع المسلمون أن ينتفعوا بهـذا الفتح طويلاً لضعف القيادة ، وتفرق الكلمة ، فكان ماكان ، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا (١).

وبعد : فـهذه صفـحات من جـهاد السلطان الكبـير أحمـد شاه الدراني، والذي يلفت النظر هو معاركه مع كفار الهند « المرهتة» الذين انتهزوا فرصة الخلاف بين زعماء المسلمين فهجموا على البلاد وانتزعوا السلطة ، وأفسدوا في الأرض ، وإننا لنلاحظ أن السلـطان أحمد شاه لما أخفق في قتالهم في المرة الأولـى لم ييأس بل عاود الكرة بعد ذلك وهو يعلم أن مـسلمي الهند لاطاقة لهم بهم، لأنهم مـحاربون مـهرة ويدافعـون عن عقائدهم الباطلة ، وقـد وفق في المرة الثانية بالقـضاء عليهم توفيقا عظيما، حيث لم تقم لهم بعد تلك المعركة قائمة، وانقذ دولة الإسلام في الهند، وهو يعـتبر من المجاهدين الكبـار الذين ابقوا دولة الإسلام في الهند مدة أطول .

ولاننسى دور العلامة المشهـور ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي الذي كان سببا في قدوم السلطان أحمد شاه لجهاد الكفار ، حيث كان يعلم بأنه هو الذي يستطيع التغلب عليهم .

* * *

(١) المختار المصون / ١٣٥٦ - ١٣٥٨ ، عن « الإعلام بما في تاريخ الهند من الأعلام ».